من سلسلة
حكايات على ضفاف الخليج
لمـــاذا الإســـلام ؟
تـــأليـــف
محمد عبد العزيز أحمد الباكر
الطبعة العشرون يناير 2008
إهـــداء
إلى الأخ الذي لم تَلِدُه أمي
إلى الوالد والمربي الجليل
إلى صاحب القلب الكبير
إلى الإنسان الذي يحمل معنى الإنسانية في زمن عزت فيه المشاعر وتلاشى فيه الصديق .
إلى الوالد الجليل
أحمد بن قاسم الدرويش
حفظه الله
أهدي هذا العمل
المقـــدمة
ربما كانت ذاكرة القرن العشرين على المسار التاريخي من نشأة الأمم وبدء الصراع الإنساني هي التي استوعبت وسجلت أسوأ وأبشع صور القسوة والظلم التي تعرض لها الإنسان. كما سجلت بكل الوضوح واليقين أكذوبة الحضارة الإنسانية وتلاشي مصداقيتها.
ففي خضم الاندفاع الهائل والمخيف نحو تكنولوچيا المستقبل كانت الإنسانية تفقد مع كل اختراع علمي وتكنولوچي مساحة هائلة من مصداقيتها الإنسانية المتمثلة في القيم الرفيعة الأخلاقية والروحية واستسلم الإنسان في غباء غير مبرر إلى عبودية القوة المادية التي استند إليها جوهر الحضارة في هذا القرن والذي أعترف أن ما تحقق فيه من تقدم في وسائل الحياة والمعرفة العلمية ربما فاق في سرعته واكتشافاته المحصلة الإنسانية كلها من علوم ومعارف منذ خلق الله آدم رغم معرفتنا الأكيدة بأن محصلة اليوم هي ناتج عمل الأمس وبمعنى آخر أن كل تلك الاكتشافات وهذا الكم من العلم جاء من رحم التراث المعرفي الإنساني المتراكم عبر حقبات التاريخ وليس وليد سحر أو صدفة.
ومن المدهش والمثير للاستغراب والتساؤل أنه رغم الحقبات التاريخية الحالكة بقسوتها وبشاعتها في سجل تاريخ البشرية قديمًا في عصور الانحطاط الفكري والأخلاقي والإنساني بشكل عام رغم كل هذا الكم من بشاعة الظلم وقسوته لم تشهد البشرية انحداراً وسقوطاً وبشاعة في الظلم كما شهده القرن العشرين بمجازره وجرائمه كماً... وكيفاً... رغم ما يقال عن الحضارة والرقي الفكري والاجتماعي وما صاحب ذلك من طفرات تكنولوجية وعلمية هائلة.
ومن المثير أن الحقبات التاريخية القديمة التي شهدت الظلم والقسوة كان لها ما يوازيها من العدل والإنصاف في جوانب أخرى ورغم أنه كان لهذه الحقبات مبرراتها كالجهل وانعدام المعرفة ومحدودية العلم والتعليم وفقدان الروح العقيدية الحقيقية إلا أنه الآن وفي ظل عالم أصبح كمدينة صغيرة محدودة المساحة وفي ظل ثورة معرفية وعلمية وتكنولوچية وتقدم إنساني عظيم بشكل عام يفترض فيه أنه بتواصله وتقاربه وثقافته وعلمه أن ينبذ الظلم والاستغلال والافتراء الكاذب وتصدير الدمار والقتل والتشريد، إلا أنه وللأسف ليس كذلك.
وربما لا أكون مبالغًا بالقول إذا افترضت ردة إنسانية هائلة للخلف أعني لعصور الظلام لكن بوسائل نهايات القرن الحادي والعشرين الخطيرة في تقدمها وسرعتها.
ومن المفترض أيضًا أن يكون الإنسان بوسائله الحديثة العلمية والمعرفية واكتشافاته المذهلة خلال الربع الأخير من القرن العشرين قد استوعب قدراً يوازي ذلك التقدم من الاستنارة العقلية والفكرية ليسلك الدروب الصحيحة في حياته التي توصله في نهاية الأمر إلى مبتغاة من السعادة والرضي النفسي.
إلا أن ذلك أيضاً لم يحدث... بل على العكس فإنه مع كل تقدم وتطور علمي وفكري يرتد الإنسان خطوة إلى الخلف بالمعنى المبتغي هنا، ودعنا بأسلوب آخر نقول انه يتقدم خطوة في الاتجاه الخطأ إنسانيًا. حيث امتلاك القدرة المادية والقوة بمعانيها الشاملة والمتعارف عليها يجعله يتناسى بغباء شديد قوانين الحياة والطبيعة التي خلقها ووضعها بحكمة عظيمة خالق أعظم وإله قادر.
تعالوا معي إلى الخلف أعني إلى رحم الماضي بعيدة وقريبة لنتأمل معاً صورة عظيمة الوضوح لحضارات سادت الدنيا بأسرها قوة ومعرفة ثم بادت ولم يعد لها أثر أو معني.
إن الإنسان بكل مخترعاته وقواه الفكرية والعقلية والمادية يظل محدود الرؤى والقدرة والتمكن، حيث استعبد منذ الأزل أي منذ خلقه الله الواحد القهار الذي خلق فسوى والذي قدر فهدي. وعلينا أن نعترف بثقة ووضوح أن حضارة القرن العشرين رغم نتاجاتها العلمية ووصولها إلى درجة خطيرة من القوة المادية والمعرفية وتطويرها المشهود لوسائل الحياة الإنسانية، إلا أنها تظل فارغة جوفاء خالية من القيم الروحية، الأمر الذي سيؤدي بها في النهاية إلى هاوية السقوط ودائرة الهلاك.

لقد اعتمدت تلك الحضارة في أساسها على نبذ الدين واعتباره أمراً شخصياً لا علاقة له بالحياة وعليه فقد آمنوا بمقولة أن الدين عقبة كأداء في طريق التقدم الإنساني (المادي طبعاً) كما آمنوا في نفس الوقت بأن العلم لا يؤدي إلى الإنسانية بمعانيها الروحية السامية.
وجهلوا في غباء يصعب فهمه أنه لا يوجد دين منفصل عن الحياة والعلم، كما أنه لا يوجد علم دون عناصر الروح الدينية فيه.
هكذا يحدث الأمر الآن كما يراه الإنسان المسلم الذي وهبه الله تعالى بصيرة تستشرف آفاق المستقبل بوضوح لا لبس فيه وإنها في نهاية الأمر تبقي صرخة من أجل الإنسانية التي يفقد فيها الإنسان حياته ضائعاً بلا ثمن أو معنى.
محمد عد العزيز أحمد الباكر

لمـــاذا؟
كانت الأحداث تتوالى بشكل مأساوي متسارع، الأمر الذي تسبب في بلورة صورة كئيبة داخل النفس ورؤى متشائمة حول المستقبل، وكانت الأحداث تبدو وكأن الشيطان قد انفكت قيوده لينساب شره وحقده وكراهيته في كل مكان.
وأكاد أشعر وأنا هنا في مدينتنا الوادعة الآمنة وبلادنا الطيبة رغم بعد الأحداث أنها تدق باب بيتي بمطارقها الثقيلة الكئيبة ويساورني شعور بالفزع والغثيان والغضب. وتعود ذاكرتي إلى الماضي بصورته الرائعة ذات الدفء الإنساني والاطمئنان الروحي والنفسي حين تناهي إلى سمعي ذلك الصوت الذي يخترق كآبتي فيحطمها ليسكن قلبي وجوارحي مغذياً إياها بالطمأنينة والراحة وانجذاباً إلى مركز النداء العظيم.. الله أكبر.. الله أكبر... لا إله إلا الله... وبجانب ذلك المسجد القديم بمنارته القديمة ذات القبة التي تمنيت خلال لحظة أن احتمي داخلها من هواجس نفسي، أوقفت سيارتي وترجلت منها لأؤدي صلاة العشاء.
قضيت الصلاة وبدأ المصلون يغادرون المسجد في طمأنينة ودعة وانصرفت معهم وشعور غامر بالراحة يجتاحني وقدت سيارتي باتجاه الميناء القديم وأنا أتأمل صور الماضي من خلال سفن الصيد التقليدية وهي تقف متزاحمة تتأرجح على صفحة مياه الخليج.
وتثور داخلي تساؤلات ومقارنات بين أولئك الأجداد الشجعان الذين صارعوا الموج والرياح وتحدوا الزمن ليستمر الإنسان والحياة. حتى أبقي أنا هنا أقود سيارتي الحديثة وأتنعم مع أبناء جيلي في مواقع الرفاهية وتصل ذاكرتي صورة الأحداث مرة أخرى لأنطلق سريعاً إلى منزلي القريب لأحتوي أطفالي وزوجتي، فقد شعرت بحنين غريب إلى رؤيتهم.
شريط من الصور كان يتوالى في مخيلتي أحياناً من رحم الماضي وأخرى من الحاضر استحضر بها وثائق التاريخ وحكاياته وأحداثه ثم تقفز ذاكرتي فجأة لتستشرف المستقبل محاولة سبر أغواره واكتشاف ملامحه، وهناك أرى خلف حافة الأفق غموضاً يبعث على الكآبة والفزع وأتأمل أبنائي الثلاثة وهم يواجهون ذلك اللون الرمادي القاتم وما يحتويه من شرور.
حوار عنيف بين الأحداث وتأملات مسموعة داخل الذاكرة تتجسد لتصبح عالماً مفعماً بالحيوية قائماً بذاته يثير الخوف والفزع وشيئًا فشيئًا يتحول إلى غضب عارم.
ثم يثور السؤال لماذا؟.. لماذا يتحول الإنسان إلى جسد حقيقي متجرد من آدميته حين يتفنن في إلحاق الأذي بأخيه الإنسان دون مبرر سوي الأنانية والجشع وتحقيق مرابح أمنية سرعان ما تزول؟! حقوق وحرية وعدل ومساواة!.. مصطلحات رائعة المعنى وعظيمة المضمون تتشدق بها حضارة القرن العشرين وتحاول لصقها على جبهتي كعنوان كاذب لحضارة كاذبة خاوية من الروح. لا.. لن أصدق.. ليس لأنني لا أريد أن أصدق، بل لأنه لا يوجد أبدًا ما يدعو إلى التصديق.
ولن أسمح لهم بخداعي وحتى لو أرادوا ذلك فلن يستطيعوا ذلك لأني أملك كنز الحقيقة، وحقيقة الكنز العظيم التي تتضاءل أمامها كل الحقائق الأخرى، بل تتلاشي.. إنني أمتلك ديني وعقيدتي أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، إنها المشروع الحضاري العظيم للإنسانية كلها، المشروع الذي يحمل في تفاصيله الحقيقية ومضمونه العظيم دواء الإنسانية الجريحة التي تترنح باتجاه الهاوية.
سبحان الله لم تدم تلك الاستغراقة التأملية التي جابت خفايا ذاكرة التاريخ منذ الوعي البشري ربما لم يكمل ذلك الاستغراق من الوقت ثلاث دقائق.. ربما أربع دقائق هي المسافة الزمنية التي قطعتها بالسيارة حتي وصولي باب منزلي مئات بل آلاف السنين اختصرتها ذاكرة بشرية في ثلاث دقائق أو أربع ليس أكثر من ذلك.
دلفت من باب المنزل لأرى الصغير يبعث الفوضى في أركان الردهة والمدخل دون رادع فيما كان الابن الأكبر وشقيقته يتنافسان في إحدى الألعاب وكانت الزوجة مستغرقة مع مشاهد الأزياء التي تعرضها إحدى قنوات التليفزيون.
رنت إلى بنظرة باسمة وهي تشير بيمناها وقد ضمت أصابعها في إشارة تعني أن انتظر انتهاء المشهد. فيما جاءت ابنتي إلى راكضة وكأنها وجدت شيئًا فقدته، وحيث لم يهتم الابن الأكبر جاء الصغير الفوضوي لينافس شقيقته في احتضاني فقبلتهما وأنا أضحك ودخلت إلى غرفتي لأبدل ملابسي وفي غرفتي وتحديداً في المنظرة حانت مني إلتفاتة لأرى وجهي وقد ارتسمت عليه ابتسامة باهتة ليس لها معنى ربما بدافع تلك المشاعر التي كانت تمور داخلي بسبب الأحداث المتلاحقة.
لم أكد انتهي من تبديل ملابسي حتي فوجئت بزوجتي تدخل الغرفة وهي تنظر إلى وجهي متفرسة بإمعان ثم قالت متسائلة: ماذا بك هل تشعر بإرهاق؟ فأجبتها وأنا أتصنع ابتسامة... لا يا حبيبتي أشعر بتوعك بسيط... ربما لأنني لم أتمكن من النوم بعد ظهر اليوم.
فقالت وهي تبتسم متحفزة... لقد أعددت حقائب السفر أرجو ألا نتأخر عن الموعد الذي حددته فالأولاد يشعرون بالملل.

فقلت لها ضاحكاً وأنا أنظر لها من طرف: الأولاد أم أنت؟ فضحكت قائلة: وأنا أيضاً، وانطلق من خلفي صوت ولدي الأكبر الذي جاء معارضًا أمه ليقول: نحن أيضاً يا بابا.
كنت لحظتها أجلس على حافة الفراش فأشرت له بيمناي أدعوه واحتويته في صدري قائلاً: بعد الغد بمشيئة الله نكون جميعًا في لندن.
يبدو أن الصراع الإنساني بين الفكر البشري والذي يحول دائماً بمفاهيم الفكر السائد للحضارة الغربية إلى عدوان غير مبرر في محاولة مستميتة للقضاء على ما يتوهمونه خصماً وعدواً وهو الإسلام.
يبدو أنه انتقل إلى بانعكاساته النفسية من خلال هذا الكم المخيف والمتواتر من الفعل العدواني والعدائي الذي ينتقل إلينا عبر وسائل الإعلام دقيقة بدقيقة.
انتابني شعور زائد بالكآبة والاستغراق العميق في التفكير حول هذا الأمر ربما كنت مستعدًا لتقبل الألم أو ربما كانت حالة الاستعداد النفسي للسفر إلى أوروبا هي التي خلقت هذا الجو النفسي الكئيب.. وللحقيقة فقد كان شعوراً مفزعاً حين يجمع الخيال بالإنسان إلى ما هو أبعد من ذلك.
كنت أفتش داخل نفسي عن أثر لتبرير هذا العداء الكامن والمتأصل في المفاهيم التي تسود حضارة تدق أبواب القرن الحادي والعشرين فلا أجد أثرًا لذلك ثم استرجع داخلي كلمات لمشاهير ورواد الفكر والفلسفة والأدب في الغرب أمثال برناردشو وروچيه جارودي وهي كلمات حق لا مراء فيها.
يتعجب داخلي الإنسان من تلك الحضارة التي تستمد قوتها وتحضرها من صنع خطوط تحدو فيها وبها الأعداد دونما لحظة من تفكير منطقي يقوم على العقل الذي يؤمنون به كل ذلك رغم ما قاله رواد فكرهم وفلسفتهم. وتظل ذاكرتي تسترجع رأي الأديب والفيلسوف والكاتب الإنجليزي برناردشو حين يقول »لقد صور أكليروس القرون الوسطي الإسلام بأحلك الألوان إما بسبب الجهل أو بسبب التعصب الذميم لقد كانوا في الواقع يمرنون على كراهية محمد عبد الله وعلى كراهية دينه وكانوا يعتبرونه خصما للمسيح عليه السلام«.
ولقد درسته باعتباره رجلا عظيما فرأيته بعيدا عن هذه المخاصمة، بل يجب أن يدعي منقذ الإنسانية وإني لأعتقد بأنه لو تولى رجل مثله حكم العالم الحديث لنجح في حل مشكلاته بطريقة تجلب إلى العالم السلام والسعادة.
رأي مفكر وفيلسوف من الجانب الآخر لم يبديه مجاملة أو نفاقًا بل أبداه بناء على دراسة وافية لرسول البشرية الأكرم ولسيرته وعقيدته.
ثم تنتقل بي الذاكرة إلى باريس لأسترجع من خلالها كلمات ذلك المفكر والفيلسوف روچيه جارودي الذي أعلن إسلامه فثارت عليه فرنسا ومفكري الغرب محاولين تحطيمه حين يقول بثقة لا تقبل الجدل »إنه لعار أي عار أن تبقي هذه الأحقاد والضغائن ضد الإسلام كامنة في قلوبنا إلى اليوم.
لقد علمونا الكذب باسم الصدق والكراهية باسم الحب والخرافة باسم الحقيقة والعلم. ولا مناص من الاعتراف بسماحة الإسلام وعدالته التي كانت مضرب المثل لأعدائه قبل أصدقائه على السواء«.
شعرت براحة وطمأنينة تسري في قلبي ونفسي وأنا أسترجع تلك الرائحة الكريمة المقاومة من الغرب... كانت نفسي تشعر بالرغبة في محاورة المستقبل الإنساني من خلال مسائلة الماضي ربما كنت أبحث عن الطمأنينة في حقيقة الأمر.
وفي صبيحة الأول من يوليو كان الأولاد سعداء ونحن في طريقنا إلى مطار مدينتنا القريب وخلال عشرين دقيقة بين إنهاء إجراءات السفر والجلوس في قاعة المغادرين كنا في الطريق إلى داخل الطائرة متوجهين إلى مدينة لندن.
ولم تكن تلك هي المرة الأولي التي نقضي فيها أيام الصيف بأوروبا، لكنها كانت وللحقيقة المرة الأولي التي قررنا فيها قضاء أسبوع في ربوع الريف الإنجليزي، وتحديدا على تلال وبين بحيرات مقاطعة كومبرلاند في قرية يونس الرائعة. وبالفعل بعد وصولنا مدينة لندن قضينا أسبوعين كاملين فيها وكالعادة كان للتسوق والمشتريات نصيب الأسد إضافة إلى اللقاءات مع الأقارب والأصدقاء الذين تجمعنا بهم أيام الصيف هناك حيث أنهم عادة ما يقضون الصيف في بريطانيا، إلا أنني لم أنس اصطحاب أبنائي إلى متحف التاريخ الطبيعي وأماكن ثقافية أخرى مهمة.
كانت الأحداث تلقي بظلالها على المزاج النفسي الأمر الذي كان يدفع بطاقة من النشاط إلى خلايا الذاكرة وكنت خلال أيام الإقامة في لندن أنظر إلى الأشياء أمامي في مجملها الشوارع والسيارات والمارة وأساليب الحياة عامة وكأنني أراها لأول مرة، ربما كنت مدفوعا بمزاجي النفسي لاستكشاف جديد طرأ هنا وكنت أحاول سبر أغوار هذا المجتمع الغربي الذي يحمل قدرا هائلا من العداء الذي كنت أشعر أنه موجه نحوي شخصياً ونحو أسرتي ومجتمعي.
واستحضر التاريخ وأغوص بذاكرتي بعيدًا هناك في رحمه الدافيء حيث أشعر بالراحة وأوروبا ممثلة في حضارتها الهيلينية »اليونانية«، ثم الرومانية لتستقي معارفها وعلومها من بلاد العرب حيث الحضارات العظيمة في بلاد الرافدين البابلية والآشورية، ثم من بلاد الشام من الفينيقيين ومصر القديمة.
وصولاً إلى الأندلس التي كانت بحق المدخل العظيم لثورة الحضارة في أوربا... لكنهم وللأسف تركوا منها عمقها الروحي وانطلقوا يعملون وهم لا يدركون أنهم بعدائهم للإسلام إنما يصنعون وحشا مخيفا ومدمراً في ثوب حضاري رائع سوف يرتد منقضا على البشرية ليدمرها ويمزق أحشاءها.
لقد كانت القسوة الحقيقية تتمثل في الجحود الإنساني المقيت وإبداعات الحضارة الغربية في صنع وتجسيد الكراهية والاستعداء تجاه أمة كان لها الفضل الأوفر في تأسيس ركائز الحضارة الإنسانية التي تسيدها الغرب.

لا بأس.. ربما وجدت إجابات شافية لمعاني الصراع الفكري المتنامي داخل نفسي حول هذا الأمر وربما صنع التغيير المكاني شيئًا ما لمعالجة هواجسي النفسي وجراحاتها المؤلمة.
وما دامت الخطوط الفكرية منذ بدء التاريخ الفكري للإنسانية قائمة وأتذكر فجأة التيار الإنساني ذو البعد الروحي العميق ورواده بدءا من أفلاطون مرورا بالمفكرين المسيحيين في العصور الوسطي ووصولاً إلى فيلسوفنا وعالمنا العظيم الغزالى وإلى ديكارت وماليرانس ولينتز وبركلي وفخته وكرورث وكانت وهيجل وماخ وبرجسون في عصرنا الحديث.
والذي يقابله التيار المادي المتحلل من الإرتباط الروحي والبعد الديني بدءاً من طاليس واتكسمندريس وهرقليطس ولوكريتوس وهويز وچاسندي وهلفيتوس وهولباخ وديدرو وسبنسر وماركس.
وفي مجال الصراع الفكري والحضاري يقف كل من هذين التيارين في جهة ولا يلتقيان دائما على طرف نقيض، واشعر بغصة في حلقي وأنا أتذكر أن التيار الثاني والذي يمثل التقدم والحضارة المادية يعتبر أن الدين لا يمثل التقدم ولا يؤدي إليه.
ويدور في ذهني أسئلة عدة... ما هو موقف الإسلام من هذا الصراع والصدام الأزلي الخطير؟ وهل يمكن أن يكون للإسلام دور في تشكيل عالمنا الحاضر؟ إنها أسئلة لابد لها من إجابة لإقناع ذلك العالم الأحمق وتلك الحضارة العمياء المتجردة من المضمون الإنساني الحقيقي.
وأجدني حائرا وأنا أتأمل ثلاث من وجهات النظر المتكاملة عن هذا العالم وهي: النظرة الدينية، النظرة المادية، النظرة الإسلامية، والتي ترمز إلى مباديء »الضمير والطبيعة والإنسان«.
وفي لندن التي تبعث أحيانا على الضجر والملل كنت أمارس حياتي بكل تفاعلاتها الإنسانية وجوانبها المادية وأنا أشعر أنني في محيط من الثقافة المغايرة ولا أقول المعادية رغم أنها كذلك والتي دائما ما أشعر معها بالاصطدام الذي يجسد معنى الحاجة إلى جسور من اللغة المشتركة وطرق خاصة لتوصيل المضمون.
ربما كان سوء الفهم هو سبب ذلك الخلل في هارموني التراتيل الإنسانية بين ثقافتنا العربية الإسلامية من ناحية والغربية من ناحية أخرى والذي انعكس بصورة خطيرة على الرؤية الغربية بشكل خاص عن العرب والمسلمين في صورة هوس من العداء الكامن والمتحرك.
ومن الغريب والعجيب أنني لا أدري لماذا يصر الغرب بحضارته وفكره على النظر إلى الدين باعتباره تجربة فردية خاصة لا تحمل في معناها أكثر من علاقة الفرد الشخصية بالله من خلال شعائر وطقوس يؤديها ولا دخل لهذا الإله بالحياة نفسها وسلوكيات الفرد فيها؟! فرغم هذا التقدم الذي يسمي بالفكري ورغم العقول التي من المفترض أنها توصلت إلى مراحل متقدمة من الاختراعات العلمية المبنية على أبحاث ودراسات إلا أنه وللأسف تظهر محدودية القدرة لدي تلك العقول حين تصبح أسيرة لعمليات التجارب والمعادلات العلمية الموصلة إلى نتائج مسلسلة ومتوالية دون تخطي ذلك الأمر إلى أفق الخلق العظيم ودون أن تتعداه إلى ما وراء المشهود والملموس.
لقد كنت في حالة استغراب وأنا اصطحب أبنائي إلى متحف التاريخ الطبيعي حين لفت انتباهي في القسم الخاص بخلق وتكون المياه والأرض وهي للحقيقة بانوراما علمية رائعة لفت انتباهي غياب أي إشارة أو تلميح إلى خالق هذا الكون العظيم.
إلى القدرة التي لا تدرك على خلق وتنظيم هذا الكون الهائل بمخلوقاته الحية والجامدة من كواكب ومجرات وأحياء.
واضطررت حينها لإكمال الشرح لأبنائي حول هذا الأمر ولم تغب عن ذاكرتي صفحات الماضي بإشراقاتها ودمويتها ولم يغب عن ذاكرتي أنهار الدماء التي جرت داخل أسوار القدس وغيرها وصولا إلى هذه اللحظات التي أشعر خلالها بالقشعريرة والفزع من ذلك المستقبل الغامض.

كان الطقس في لندن خلال النصف الأول من يوليو معتدلا بشكل يميل قليلا إلى الدفء بل إلى الحرارة نوعا ما الأمر الذي دعم رغبة الأسرة وأكدها في الرحيل شمالا إلى أحد المنتجعات الريفية الشهيرة حسب اتفاقنا السابق بناء على رغبتي لقضاء أسبوع بين تلال بونسي ووندرمير الخضراء وغاباتها الساحرة وبحيراتها الممتدة بين التلال في منظر بانورامي خرافي للطبيعة التي كنت قد زرتها منفردا في السابق وقررت خلال زيارتها أن اصطحب أسرتي لاحقا ليستمتع أبنائي بهذا الهدوء والهواء النقي.
وربما كان الأمر يتعلق باقتراف ذنب الأنانية حيث شغفت بهذه المنطقة الساحرة وساورني شعور بأن لهم الحق أن يستمتعوا مثلي هنا وهذه ربما كانت بعض العاطفة الزائدة لدينا بحق نحن العرب تجاه الأبناء.
وبالفعل لم تكد الساعة العاشرة من صباح اليوم المحدد للرحيل تحين حتي كنا في طريقنا بالتاكسي إلى محطة يوستون الضخمة، والتي تكاد تشبه المطارات وبعد حجز بطاقات السفر بقليل كنا في إحدى عربات القطار المتجه إلى اسكتلندا حيث سنغادره في محطة أوكسينهولم بعد أكثر من أربع ساعات ولم تكن عربات الدرجة الأولي التي كنا فيها تحمل سوانا وبضع أفراد لا يتجاوزون عدد أصابع اليدين كانوا كلهم من اليابانيين واستمتعنا بسفر مدهش في راحته ومتعته.. لقد استمتعنا برؤية مناظر طبيعية رائعة للريف الإنجليزي بطبيعته الخلابة وهدوئه المعروف.
وفي محطة أوكسينهولم وهي إحدى المحطات الفرعية على طريق القطار المتجه لجلاسجو غادرنا القطار وانتقلنا إلى الرصيف الآخر لنستقل القطار الفرعي إلى وندرمير وبالفعل لم تكد تمضي عشرين دقيقة فقط حتي وصلنا إلى وندرمير وكان السيد بيتر حود فري في انتظارنا حسب الاتفاق الذي تم معه عبر الهاتف من لندن وكان لقاءًا حارًا مع ذلك الرجل الايرلندي الذي يجيد بناء العلاقات الطيبة مع نزلاء فندقه الصغير الرائع.

دقائق وكنا ندلف بأمتعتنا من مدخل ذلك النزل الفخم بطرازه المعماري ونظامه المتسع من الداخل وديكوراته الجذابة الراقية وفرشه الفخمة المريحة.. كان كريج بروكوتيج ذلك النزل القائم على إحدى التلال المطلة على البحيرة والجبال الخضراء والطبيعة الساحرة يستحق بجداره أن يكون المكان المناسب لإقامتنا هناك في بونسي وناهيك عن الجو العائلي الدافيء والطعام الفاخر والخدمة الممتازة.
وكانت السيدة آن زوجة السيد بيتر هناك في استقبالنا بابتسامتها المعهودة وشخصيتها المتميزة واستعدادها الطيب للمساعدة وتلبية الطلبات فقد كانت كريمة النفس مرحة الروح. ولم يكن النزل يتكون من أكثر من طابقين فقط، الأول يحتوي على ردهة الاستقبال وغرفة القهوة والمطعم، والثاني للإقامة وكان به حوالى عشر غرف فقط.
كان نهار اليوم الأول للوصول لم تزل فيه بقية بعد تناول بعض الشطائر الخفيفة وعصير البرتقال، اصطحبت أفراد الأسرة لإلقاء نظرة على البحيرة والميناء الذي ترسو فيه السفن المخصصة للتنزه في البحيرة بمقاعدها المتراصة على سطحها والتي كانت تأخذ المتنزهين في جولات لمدة ساعتين بالبحيرة متنقلة بين موانى القرى الواقعة على ضفافها.
وكان الطقس ساحرا والهواء نقيا منعشا ببرودته الخفيفة ونظرا للسفر الطويل من لندن اقتنع الأولاد بتأجيل النزهة البحرية إلى الغد حيث ما زال أمامنا متسع من الوقت للتجول والاستمتاع بالمنطقة وسحرها.
وبعد جولة قصيرة وصلنا فيها إلى مداخل الغابات المترامية عدنا إلى النزل ولم تنس السيدة آن أن تذكرنا بأن طعام العشاء يبدأ من السابعة وحتى التاسعة والنصف وهو نفس موعد تقديم طعام الإفطار صباحاً فشكرتها وصعدنا الدرج المؤدي إلى غرفتينا المتصلتين بباب داخلي.
كانت الزوجة والأولاد سعداء بجمال الطبيعة والطقس والهدوء وأبدت زوجتي غبطتها وسعادتها وقبلتني الصغيرة وكانت الساعة قد تجاوزت السادسة بقليل فأدينا الصلاة جمعاً وقصرًا فيما كان الأبناء قد راحوا في نوم عميق.
وأخذت الزوجة الصغيرة في صدرها ونامت لتستريح قليلاً، فيما أبدلت ثيابي وهبطت الدرج لأستمتع بقدح من القهوة السوداء مع بيتر وآن، وفوجئت بوجود الفتاة الأسكتلندية فيونا التي رحبت بي في حرارة الأسكتلنديين وتجاذبت معي بعض أطراف الحديث حول الطقس والمنطقة وتخطيطها لمستقبلها حيث تود العيش في استراليا واستغربت من الأمر وقلت لها متعجبا ومتسائلا: هل أنت جادة يا فيونا؟... ثم استطردت قائلا أتتركين هذه المنطق هائلة الروعة وتذهبين إلى استراليا؟ فقالت: نعم إني أخطط بالفعل للعيش في استراليا أما بالنسبة لهذه المنطقة فهي بالفعل رائعة وساحرة في عينك أنت والآخرين ولكنها عادية جداً في عيني فأنا عشت عمري كله تقريبا هنا.
وآن الأوان لأغير المكان سعيا لتحقيق طموحاتي الشخصية فقد انهيت دراستي الجامعية لتوي. كانت فيونا تعمل موظفة استقبال كما كانت تعمل أيضا في مطعم النزل لتقديم الطعام للنزلاء في أوقاته المحددة ومعها سيدة إنجليزية أخرى اسمها چين إضافة إلى أصحاب النزل السيد بيتر وزوجته آن وحضر بيتر فجأة وقال وهو يبتسم: أتمني أن يستمتع أبناؤك وزوجتك هنا معنا. فقلت له: آمل ذلك.
فقال بسرعة وهو يتحرك باتجاه البار حيث المكان الذي يضع فيه المطبوعات الخاصة بالنزل ومفاتيح الغرف. دعني أعطيك بطاقة عضوية النادي فربما تريد الذهاب إليه مع أسرتك، وكان هذا النادي هو باركلاندز كِلَبْ وهو لا يبعد أكثر من خمسمائة متر عن النزل ويضم بالإضافة إلى بركة السباحة والجيكوزي والسونا والاستيم قاعة الچمينيزيوم للتدريبات الرياضية وملعب للتنس والاسكواش وبار للمشروبات والأغذية الخفيفة وصالون حلاقة، كان مكانًا راقيًا رائعًا يدار بطريقة منظمة.
فقلت لبيتر وأنا أشكره: أوه يا بيتر أنت لا تنسي شيئًا، أشكرك على كل حال. أحضرت فيونا القهوة لي فيما أحضرت قدحاً من البيرة لبيتر الذي كنت دائما ما أقول له مداعبا: أيها الأيرلندي أنتم الأيرلنديون لا تملون الشراب حتي تسقطوا أرضا.
كان يضحك كثيرا كما كانت فيونا أيضا تضحك لذلك، حيث إنها أسكتلندية والأسكتلنديون هم أيضا كذلك لا يملون الشراب، واستأذن بيتر وفيونا في السادسة والنصف للإشراف على تقديم طعام العشاء الذي حان وقته.
وفي الثامنة والربع بعد أن استمتعت بجلستي منفردا في حديقة النزل وأنا أتذكر الأوقات التي قضيتها هنا في المرة السابقة نهضت صاعدًا الدرج لأوقظ أفراد الأسرة ليلحقوا بموعد تناول طعام العشاء.
وما إن دلفت إلى الغرفة حتي وجدت زوجتي مستيقظة تحادث الصغيرة وتلاعبها فيما كان التليفزيون يعرض على إحدى قنواته برنامجًا إخباريًا وتذكرت المرة الماضية التي زرت فيها هذه القرية وكانت أوروبا تحتفل بمرور خمسين عاما على انتهاء الحرب العالمية الثانية حيث كان التليفزيون البريطاني وتليفزيونات أوروبا تعرض أفلاماً حول اضطهاد اليهود وخاصة من قبل النازية في ألمانيا، كانت وجبة مستديمة ومتكررة على المشاهد أن يتقبلها بالرضا وعدم التذمر.
قَبلتُ الصغيرة وزوجتي تبتسم ثم قالت متسائلة: إلى أين ذهبت؟ إنك لم تنل قسطا من الراحة!. فقلت لها: إن النوم هنا في نظري شبه جريمة إذا زاد عمره عن 5 - 6 ساعات.
ثم أردفت قائلاً: هنا يجب أن تنتهزي الفرصة للاستمتاع بالطبيعة الخلابة والرياضة وملء صدرك بالهواء النظيف حيث لا وقت للنوم. فقالت وهي تضحك: وماذا عن برنامج الغد إلى أين ستذهب؟ فأجبتها وأنا أهز رأسي: دعي الغد للغد... أما الآن فأيقظي الولدين لتناول طعام العشاء الذي حان وقته فقد قاربت الساعة الآن التاسعة إلا ربع.
وفي التاسعة تقريبا هبطنا جميعا الدرج إلى البهو الرئيسي ومنه إلى قاعة الطعام، حيث استقبلتنا فيونا مرحبة واخترنا إحدى الطاولات المجاورة للحائط الزجاجي المطل على الحديقة وكان بقاعة الطعام حوالى ست طاولات مشغولة وكان المنظر العام الغالب على النزلاء مزدوجا فلم يكن هناك رجل بمفرده أو سيدة بمفردها، كانوا عادة أسرا وقليل منهم يصطحب أطفالاً معه، كانوا في معظمهم من الإنجليز

الذين يأتون إلى هذه المنطقة الرائعة في طبيعتها وطقسها للاستجمام والتمتع بالهدوء بعيدا عن زحام المدن الكبرى وضجيجها يتركون وراءهم مشاغلهم وهمومهم ليستجموا فترات لا تزيد عن ثلاثة أو أربعة أيام في غالب الأحيان.

لقد أدركت ذلك خلال زيارتي الأولى التي قضيت خلالها اثنا عشر يوما. كان الطعام فاخرا بحق كما كان بيتر وزوجته يعرفان الأطعمة التي لا نأكلها وهي تقريبا لحم الخنزير فقط وكانت أسرتي سعيدة بتغير المكان كما كان الأولاد تواقين للاستمتاع برحلة بحرية وكان ذلك بالطبع ضمن جدول الرحلة.

وبعد تناول طعام العشاء انتقلنا إلى حديقة النزل وهناك على المقاعد البيضاء التي تتوسطها مظلة ملونة وسط طاولة جلسنا وكانت لحظات الغروب رائعة ولسعة البرد خفيفة منعشة تداعب أوتار النشاط الجسدي والعقلي والروحي فينا، وذهب الأولاد يتقافزون في الحديقة لعبا ويتراكضون خلف البنايات والأشجار الوارفة المزهرة فيما كانت الشمس تتواري على استحياء بقرصها القرمزي خلف الجبل الداكن الخضرة على الناحية الأخرى من البحيرة والتي كانت كبساط من الفضة يترقرق بسطته يد الخالق بين سلاسل التلال الخضراء لتصنع لوحة فيها شيء من جمال الخالق وعظمة قدرته.

هكذا كانت البداية الرائعة لرحلتنا إلى منطقة البحيرات والغابات والتلال التي تمثل أجمل مناطق ريف انجلترا وربما العالم على الإطلاق. ولم أكن أعلم أن يد القدر قد رتبت لي موعدا مع أحداث أخرى لاحقة كنت أتوق إليها وأتحرق شوقا في نفسي سوف تحدث فيما بعد.

كان البار يحتل حيزا صغيرا وكافيا وبجانبه أو بالأصح في مدخله الصغير الذي لا يسع سوي فردين فقط يتحركان داخله وبصعوبة ربما وذلك لتجهيز الشراب للنزلاء مكان لسجل النزلاء ومفاتيح الغرف وأمام البار مكان متسع من الردهة وكاف لمقاعد وثيرة تتسع لأكثر من عشرة أشخاص وكانت الطاولات الصغيرة وفوقها منافض السجائر تتناثر بين المقاعد التي كانت تشكل دائرة تقريبا هو الملتقي الليلي للنزلاء على اختلاف أجناسهم ومشاربهم يجتمعون عادة في جو عائلي يحتمه محدودية العدد وصغر النزل ومناخ الود الذي يصنعه ويضفيه السيد بيتر وزوجته آن.

كان بيتر وزوجته يجالسان النزلاء فيم تقوم فيونا أو چين داخل البار لإعداد الشراب ومن ثم يتولي بيتر وزوجته تقديمه.

وأحيانا تمتد الجلسة حتي الثانية صباحًا حيث يبدأ انصرافهم تباعا لنيل قسط من الراحة استعدادا لبرنامج اليوم التالى في هذا المنتجع الرائع والذي ينقضي عادة بالتنزه داخل الغابات الكثيفة المترامية والتي تكسو تقريبا معظم المنطقة وتلالها أو بالتنزه بالقوارب على سطح البحيرة والتزلج على الماء أو التجول وزيارة القرى الأخرى المنتشرة حول البحيرة بواسطة السفن الخاصة ذات البرامج الترفيهية والتي تنتشر المقاعد على سطحها في الهواء الطلق والتقاط الصور التذكارية أو حضور معرض فني في هذه القرية أو تلك أو الاسترخاء للتمتع بقراءة كتاب أو ممارسة الرياضة والسباحة في نادي باركلاندز والذي يتمتع فيه النزل ونزلاؤه بحق العضوية ونظراً لأن الغالبية العظمي من الإنجليز والأوربيين لم يكونوا يمكثون في هذه المنطقة سوي ثلاثة أو أربعة أيـــام فإنهـم لم يكـــونـــوا يذهبـــون إلى هـــذا النـــادي الـــذي يقتصر الحضـــور فيه على عـــدد قليل مـــن الـــرواد مـــن أهل المنطقة وسكانها.

كانت الساعة تقريبا قد تجاوزت الحادية عشرة والنصف ونحن نجلس أمام النزل أنا وزوجتي والأولاد يلعبون حولنا حين شعرت بأثر إرهاق ذلك اليوم بسبب السفر وعدم نيل قسط من الراحة ونهضت وزوجتي مصطحبين الأطفال ومتوجهين لغرفتينا حيث وجدت جمعا من النزلاء جالسين ومعهم بيتر وآن اللذين أومآ لي باسمين فألقيت تحية المساء وأشرت لبيتر الذي سألني الانضمام إليهم أن ذلك سيكون في الغد لشعوري بالحاجة للراحة فتمني لنا ليلة سعيدة.

أدينا الصلاة جمعا وقصرا وأوينا إلى الفراش فيم كان الأبناء وأمهم يتوجهون للغرفة الأخرى لمواصلة السهر ومشاهدة التليفزيون حيث كانوا قد حصلوا على قسط كاف من الراحة قبل التوجه لقاعة الطعام لتناول وجبة العشاء الشهي وإن هي إلا دقائق حتي رحت في نوم هادىء وعميق.

* * *

كانت السيدة آن تقدم لضيوفها الشراب حسب طلباتهم وكانت المجموعة التي يقدم لها الشراب تضم السيدة إيفون التي تعمل أستاذة للنحت في جامعة لندن وزوجها السيد جيم هاميلتون والذي يعمل أستاذاً للأدب بنفس الجامعة.

والسيدة ميري التي تعمل سكرتيرة في إحدى دور النشر وزوجها السيد هاري ويليامز الذي يعمل في مجال تسويق معدات التصوير. وكيت الطالبة التي تدرس الاقتصاد في جامعة مانشستر وصديقها أنتوني باركر الذي يعمل في مجال الكمبيوتر.

كان الجميع يتبادلون الأحاديث وهم يحتسون الشراب وقد لفتنا أنظارهم أنا وأسرتي أثناء توجهنا لغرفتينا حين ألقيت عليهم تحية المساء وبادلني بيتر التحية بعدها، ساد الصمت لبرهة قصيرة قطعته السيدة إيفون أستاذة النحت وقد استرعى انتباهها أمرنا وعلى وجه الخصوص زوجتي بلباسها الشرقي المحتشم وربما أيضاً سحناتنا الشرقية ولون بشرتنا فوجهت حديثها لبيتر قائلة: يبدو أنهم شرقيون وفي الغالب هم عرب أليس كذلك؟ فأجابها بيتر قائلاً: نعم إنهم عرب خليجيون فمطت شفتيها ورفعت حاجبها لأعلى وهي تنظر من طرف مبتسمة لبيتر ثم قالت: أرى زوجة واحدة معه بصحبة أطفالها أليس ذلك مدهشاً؟ فقال بيتر وقد أدهشته ملاحظتها متسائلاً: ماذا تقصدين؟ فأجابته قائلة وهي تضحك والجميع يبتسمون: أنت تفهم قصدي يابيتر إلا إذا كانت أقداح الشراب قد لعبت برأسك.

فابتسم بيتر وهو يهز رأسه قائلاً: لا يا سيدتي لازالت هناك أقداح كثيرة تنتظرني قبل أن يصيبني الدوار ويبدو أنه رغم زياراتك المتكررة لنا خلال الأعوام الماضية إلا أنك تنسين أنني أيرلندي.

فضحك الجميع وعلق زوجها السيد جيم هاميلتون قائلاً: تقصد أيفون هؤلاء العرب المسلمون عادة مايحوزون أكثر من امرأة كزوجات لهم.
فقالت كيت: إنني لا أستطيع أن أفهم هذا الدين العجيب هل قرأت عنه يا مستر جيم؟ فهز رأسه قائلاً: نعم ولكن ليس بالقدر الذي يسمح لي بالفهم الكامل لهذا الدين.
وتطوعت ميري قائلة: إنهم دمويون... ومتخلفون... ودينهم يرفض المدنية والحضارة... أليس كذلك؟ فقالت كيت مجيبة على التساؤل: أظن ذلك وهذا ما نسمعه ونشاهده في وسائل الإعلام.
فرفع بيتر صوته قائلاً: اسمحوا لي بملاحظة بسيطة لقد جاء هذا الرجل العام الماضي وقضي معنا هنا بعض الوقت وكان مثالاً للخلق... صحيح هو لا يشرب ولا يتعاطى الخمور ولا يأكل لحم الخنزير لكنه ذو سلوك جيد ويميل للمرح والبساطة ولم نأخذ عليه أية ملاحظات خاطئة.
كانت إيفون وزوجها قد وصلا بالأمس وقبلهم كانت ميري وزوجها هاري وكيت وصديقها بليلة واحدة وكان الجميع ماعدا كيت وصديقها من النزلاء الدائمين للنزل يعرفهم بيتر وآن أصحاب النزل بحكم التردد المستمر على النزل. وكانت إيفون من النوع الشغوف بالمعرفة ... فتساءلت إن كان ذلك الرجل الخليجي وزوجته سينضمون إليهم في جلسة الغد أم أنهم انعزاليون؟ فقال بيتر: لا إن الرجل كان يجالسنا ويقضي معنا الوقت الطويل ليلاً... ولعلمك يا سيدة إيفون إنه واسع المعرفة وذو ثقافة عالية. ففغرت فاها مندهشة ثم قالت: إذا كان حقا ما تقول فهذا شيء رائع وإنني تواقة للتعرف عليه.

* * *

تسلل نور الصباح من بين ثنايا الستارة المسدلة على نافذة الغرفة المطلة على البحيرة والتلال الخضراء وانسابت أصوات الطيور مغردة تحمل في موجاتها نداء الحياة والتسبيح للخالق العظيم وفتحت عيني ببطء الانسلاخ من شرنقة نوم لذيذ وعميق ثم نهضت من فراشي لألقي نظرة على الأولاد الذين كانوا لا يزالون نائمين مع أمهم متناثرين حولها في الفراش.
تركتهم ودلفت إلى الحمام حيث استمتعت بسبوح خرجت بعده وأنا أشعر بحيوية عالية ونشاط كبير فأيقظتهم وكانت الساعة قد تجاوزت السابعة والنصف صباحاً حيث أديت صلاة الصبح فيم كانت زوجتي تقوم بمهمتها المقدسة في الإشراف على حمام الأولاد وأبلغتها بأنني سأنتظرهم في قاعة الطعام لتناول الإفطار.
وهناك كان بعض النزلاء يتناولون فطورهم فألقيت بتحية الصباح وتوجهت إلى إحدى الطاولات حيث ذكرتني السيدة چين بأن على أن أخدم نفسي واختار ما يروق لي من طعام الفطور حيث كانت هناك على طاولة كبيرة في صدر القاعة أنواع متعددة من الفواكه والعصائر الطازجة والحليب والخبز والكورن فليكس وغيرها. ثم عادت چين لتسألني إن كنت أريد شيئاً آخر تحضره من المطبخ كالبيض أو السمك فابتسمت وطلبت بيضة واحدة مسلوقة بجانب الكورن فليكس مع الحليب وعصير الفواكه.
وإن هي إلا دقائق حتي ظهرت طلائع الأولاد بصحبة أمهم حيث جاءوا يركضون تجاه طاولتي فيما أخذت الأم تجهز لهم فطورهم من حليب وبيض وعصائر فواكه. وانطلقت أنا بعد انتهائي من تناول فطوري إلى البهو الرئيسي حيث ملأت قدحا من القهوة السوداء وجلست خارج المدخل تحت المظلة أتناوله وأنا استمتع بسيجارة وطقس رومانسي يخاصم المدينة بضجيجها وأزدحامها وتلوثها وتوترها العصبي المزمن.
وفجأة ظهر بيتر وهو يبتسم قادماً من منزله حيث ألقي بتحية الصباح ثم سألني هل تمانع في تناول فنجان من القهوة معك؟ فأجبته ضاحكاً... بكل سرور ولكن اسمح لي أن أدفع ثمن قهوتك فأنا لست إنجليزيا بخيلاً... فضحك بيتر عالياً وقال وهو ينظر حوله: احترس فقد تسمعك آن إنها قادمة خلفي.
بالطبع كانت القهوة مجانية للنزلاء ولكني أردت ممازحته فقط حسب ما تعودت معه فقد كان أيرلندياً أصيلاً وطيب القلب ذا روح مرحة وكرم نفسي ومجامل لأقصي درجة لنزلائه.
وبالفعل ظهرت آن قادمة وهي تبتسم فألقت بتحية الصباح ثم اطمأنت مني على أحوال الأسرة وما إذا كانوا قد تناولوا طعام الإفطار أم لا... وأيضاً ما إذا كانوا سعداء هنا فأجبتها بأن كل شيء على ما يرام.
وأثناء الحديث مع آن أحضر بيتر قهوته وجلس على مقعد بجواري وقال: طقس جميل ورائع أليس كذلك؟ فوافقته قائلاً: تماما.. تماما.. يا بيتر. فأردف قائلاً: لا تنسي اصطحاب أبنائك وزوجتك في نزهات بحرية وأنت تعرف أن المنطقة آمنة تماما، ثم أخرج من جيب قميصه بطاقة للذهاب إلى النادي حيث بركة السباحة والسونا والجكوزي والإسكواش وغيرها وقال لي: هاك لا تنسي أن تذهب إلى المكان الذي أعرف أنك تفضله. فابتسمت وأنا أتناول البطاقة قائلاً: شكرا لك يا بيتر تناول بيتر رشفة من قدح القهوة وقال: سوف تقضي معنا السهرة الليلة أليس كذلك؟ فقلت له: بلي الليلة سوف أنضم إليكم وأنا أعتذر لعدم... ولم يتركني أكمل فقال: لا عليك أعلم أنك كنت في حاجة للراحة بعد عناء السفر من لندن إلى هنا مع أسرتك ثم أخبرني بالحوار الذي جري ليلة الأمس مع النزلاء.
وفجأة جاءت آن بعد أن كانت قد دلفت إلى الداخل للإشراف على العمل ونادته فاعتذر وذهب وبقيت أنا إلى أن جاء الأولاد مع أمهم وهم يطلبون الذهاب في جولة بحرية كانت بالفعل في البرنامج فطلبت منهم إحضار أغطية الرأس (قبعات رياضية) خوفا من هطول المطر ونحن على سطح السفينة.
وصعدت زوجتي فأحضرت الكاميرا وانطلقنا باتجاه الميناء الذي لا يبعد سوي أربع أو خمس دقائق عن النزل وفي تمام العاشرة كنا جميعا على ظهر المركب مع عدد غير قليل من السياح وزوار المنطقة لتتحرك بنا إلى قرية أمبلسايد وعدد آخر من القرى حول البحيرة في طقس

بديع رائع ووسط مناظر طبيعية خلابة وساحرة واستمرت النزهة مدة ثلاث ساعات كاملة حتي الواحدة ظهرا حيث توقفت بنا في الميناء الذي انطلقت منه بقرية بونسي وكان الجميع سعداء.
توجهنا بعدها إلى أحد المقاهي الأنيقة المزدحمة بالرواد حيث تناول الجميع الآيس كريم وتجولونا بعدها بين المحلات حيث كان للمحلات التي تعرض الملابس النسائية نصيب الأسد من الوقت حيث أخذت زوجتي تصول وتجول بين أرجاء تلك المحلات التي لم تستحوذ في نهاية الأمر على إعجابها ومن ثم انطلقنا إلى الفندق ليقضي الأطفال حاجتهم بعد أن عرجت على أحد محلات الفواكه وابتعت بعض الكرز والفراولة الإنجليزية الطازجة وهناك بالغرفة كانت إدارة الفندق قد تركت سلتين بهما بعض الفواكه المكونة من التفاح والبرتقال.
وانطلقنا مرة أخرى من النزل في جولة حرة بالقرية وفي الخامسة بعد الظهر عدنا جميعا حيث فضلت التمدد في الفراش قليلاً قبل موعد طعام العشاء فيما نزل الأولاد وأمهم ليلعبوا في حديقة الفندق. تمددت على فراش محاولاً النوم لكني لم أستطع حيث سيطرت على فكرة أولئك النزلاء المتحفزين للقائي فقد لمحت من حديث بيتر لي في الصباح أن جلسة الليلة ربما تكون ساخنة خاصة وأن هؤلاء النزلاء على مستوي جيد من العلم والثقافة إلا أن ما أثار فضولي هو حديث بيتر عن تلك الفنانة في مجال النحت والمتشوقة للقاء عربي مسلم.
كنت باعتباري عربياً مسلماً أملك خلفية حضارية كبيرة وتراثا أعرف قدره تماماً من التراكمات التاريخية والروحية كما كنت أدرك في نفس الوقت أننا نعيش في عصر تطورت فيه الحضارة التي يقودها الغرب إلى درجة صنع عداء وهمي وغير حقيقي مع الإسلام بصفة خاصة ربما لأهداف سياسية بل من المؤكد أنه لأهداف سياسية منطلقتين من سوء الفهم التاريخي والخطاب الحاقد للكنيسة الكاثوليكية الذي يصور العرب والمسلمين في أسوأ صور الهمجية والإرهاب.
كما كنت أعلم وأنا هنا في شمال غرب إنجلترا أن تلك الحضارة المادية بوحشتها الروحية تصنع المآسي وترتكب باسم المدنية والرقي أفظع الجرائم عبر القهر النفسي والمادي الذي يمارس على العرب والمسلمين في أحداث جرت وتجري على أرض الواقع كل صباح.
عالم تحكمه حضارة بليدة الحس عمياء بلا روح... قيمها المادة وفعالياتها قوة غاشمة... يوجهها الخط الفكري المادي الذي يسود الآن حيث إنه ومنذ بدء التاريخ الفكري للإنسانية ظهر نمطان متوازيان من أنماط الفكر الإنساني بدأ النمط الأول منذ أفلاطون ثم الغزالى مرورا بمفكري المسيحية في العصور الوسطي قبله وتبعه ديكارت ومالبرانس Malebranche وليبنتز وبيركلي وفخته وكدورث Orth Cudw وكانت Kont وهيجل وماخ Mach وبرجسون في العصر الحديث أما النمط الفكري المادي فقد مثله كل من طاليس، أنكسمندريس وهرقليطس ولوكريتوس وهبز وجاستندي وهلفتيوس وهولباخ وديدرو وسبنسر وماركس.
هذان النمطان المتوازيان والمتناقضان من التفكير يقفان في مجال الأهداف الإنسانية العملية ليحكما الفكر الإنساني في تناقض يمثل الأول منهما المذهب الإنساني ويمثل الثاني التقدم ويأخذني التفكير متعمقا في المفهوم الغربي للدين والعلم الذي ينطلق من أن الدين لا يؤدي للتقدم كما أن العلم لا يؤدي إلى الإنسانية وهم بذلك يكونون قد ظلموا أنفسهم بتجاهلهم للإسلام أو ربما عدم فهمهم لجوهره وحقيقته.
فالدين في المفهوم الغربي وكما وصل إليهم وكما فهموه هو أن الدين يعتبر تجربة فردية خاصة لا تذهب أبعد من علاقة الإنسان الشخصية بالله وتتمثل في عقائد وشعائر فقط يؤديها المرء أو الفرد دونما تداخل وتشابك مع الحياة وبتفاصيلها وسلوكياتها وحركتها.
لقد تجاهلوا أن الإسلام هو الوجود المتزامن والمتناغم للروح والمادة معا هو علاقة الإنسان بالله سبحانه ومن خلاله تنتظم علاقة الإنسان بالبشر وبتفاعله مع جزئيات الحياة بكل تفاصيلها.
كنت وأنا متمدد في فراشي قد فقدت الأمل تماماً في غفوة مريحة بعدما سيطر على عقلي هاجس الحوار الذي من المؤكد أنه سيدور الليلة بيني وبين رموز غربية تملك ثقافة وعلماً رفيعاً وربما ينضم آخرون وسأكون وحيداً بينهم بثقافتي وفرديتي وقدرتي المحدودة وانتابني قدر من القلق ليس بسبب الخوف أو الوجل من عجز في القدرة على الحوار ولكن في حقيقة الأمر كان الخوف أو لنقل الهاجس الحقيقي ينصب على مدى قدرتي في الوصول إلى اللغة الحوارية التي تتوافق مع العقل الغربي والمفاهيم الغربية للمصطلحات- حيث إن لغة الحوار مع عربي مثلي يحكمها انسجام في معاني المفردات أو المصطلحات الحسية والمفهوم تختلف في حالة حوار مع من ينتمون لثقافة أخرى مغايرة في المفاهيم ولغة الحوار ومصطلحاته ليس ذلك فقط بل شبه معادية وتندرج تحت مسميات الخصومة والصدام.
شعرت بإرهاق عقلي ونفسي بسبب التفكير المتواصل في هذا الأمر فاستدرت بجسدي على جنبي الآخر ووضعت طرف الوسادة على رأسي ووجهي وتنفست بعمق ورحت في إغفاءة لم أدركم طالت من الوقت.
* * *

أفقت من نومي نشيطا عندما فتح باب الغرفة ودلفت الصغيرة قافزة إلى الفراش ومطوقة عنقي بذراعيها وهي تقبلني ضاحكة فيما يقف شقيقها الأكبر ليطلب مني الانضمام إليهم حيث تجلس أمه وبرفقتها ولدها الأصغر مع السيدة آن تتبادل معها أطراف حديث متنوع ومتقطع بسبب إنجليزيتها الضعيفة وبعد مداعبات مع الصغيرة وشقيقتها صرفتهما عائدين إلى الأسفل فيم توجهت إلى الحمام وكان الماء البارد ينساب على جسدي دافعا في شراييني نشاطا غير عادي خرجت بعده وأنا أشعر بقوة وتجدد حيث أديت الصلاة بعدما أبدلت ملابسي.
غادرت الغرفة وكانت الساعة تقترب من الثامنة وفي الأسفل لم أجد سوي السيدة آن التي أشارت لي باسمة بأنهم أي الأولاد سبقوني إلى قاعة الطعام لتناول طعام العشاء فتوجهت إليهم حيث وجدت القاعة غاصة بروادها فيما أسرتي تستقل بطاولة قريبة من المدخل فألقيت نظرة سريعة على القاعة وأومأت برأسي بالتحية ثم جلست لتناول الطعام مع أبنائي حيث كانوا يتناولون طعامهم بشهية ورمقتني أمهم بنظرة باسمة ثم قالت: طبعا شبعت نوما وتركتني مع هؤلاء الشياطين أبنائك إنهم لم يهدءوا لحظة واحدة وقد اضطررت تحت إلحاحهم لاصطحابهم إلى كورنيش البحيرة وقد سعدوا كثيرا بالبط هناك.

فضحكت وأنا أنظر إليهم قائلاً: هل استمتعتم جيدا بالبط المنتشر بجانب البحيرة؟ وربت بيدي على رأس الابن الأكبر الذي قال مجيبا:نعم وكادت شقيقتي أن تبكي حين هاجمتها إحدى البطات.
وبعد وجبة عشاء طيبة فترت رغبة الأطفال في اللعب فاصطحبتهم الأم إلى غرفتهم وهي تبدي رغبتها في أخذ قسط من الراحة بعد عناء اليوم وجولاته فيما أخذت قهوتي وجلست في حديقة النزل وأنا أفكر بعقل نشيط ومتوهج حول ما سيدور من نقاش مع أولئك الذين يريدون مطارحتي الحوار.
كان الغروب هنا بمثابة نقطة أو لحظة ساحرة من نقاط الزمن ولحظاته أثناء اندفاعه صوب المجهول الآتي فيما بعد ليقابلنا هناك عبر لحظاته الأليمة وبخاصة اللحظي المتجدد. لحظات قليلة هي التي تبعث في نفوسنا السعادة ثم تتوالى لحظات ولحظات عبر زمن هائل الحدوث والحركة والرتابة تتراوح بين الرقابة والهموم التي تزرع الشقاء في نفوسنا لحمل آلامه معنا عبر ذلك الزمن لا يخفف عنا هجيرها سوى الإيمان ذلك الدواء الشافي العظيم الذي يسعفنا دائما في لحظات اليأس المطبق التي تتساوي فيها معاني الموت والحياة عبر بحار الظلم والبطش التي تسبح فيها إنسانية العصر الذي نعيشه.
كنت سابحا ببصري عبر الأفق العظيم متجاوزا التلال التي بدأت خضرتها تتحول إلى اللون الأسود الداكن وكأنني استشرف حافاته لأري ما خلفها عبر بصيرتي وبصري ولم أفق من استغراقي إلا على صوت بيتر وهو يحييني قائلاً: تستطيع أن تنضم إلينا بالداخل.
وكان رذاذ خفيف قد بدأ بالهطول فنهضت متوجهاً خلفه إلى الداخل وهناك كان البعض يجلسون وهم يتناولون شرابهم ومع ابتسامة مفتعلة تسبق عادة البدايات الأولى للتعارف ألقيت بتحية المساء ثم جلست على مقعد منفرد وتولي بيتر تقديمي للجالسين، وكانوا على التوالى السيدة ميري وزوجها السيد هاري ثم السيدة إيفون وزوجها السيد هاميلتون وكانوا يجلسون بمواجهتي فيما كان السيد باركر وصديقته كيت يجلسان معاً على مقعد في يساري ثم بيتر الذي كان يجلس على يميني هو والسيدة آن على مقعدين منفصلين يتيح لهما حرية الحركة لتلبية طلبات الجالسين وتقديم المشروبات وخلفهما كان البار تقف فيه السيدة چين التي تعمل في النزل.
وكان أمام كل منهم قدحه وبادرني بيتر قائلا: ماذا تريد أن تشرب؟ فقلت له: شكراً بيتر... لقد شربت قهوتي للتو.
فقال وهو يبتسم محاولا إذابة الجليد الذي يغلف عادة بدايات التعارف إذن اقبل دعوتي على قدح من الشراب الذي تفضله.. ثم أردف قائلاً وقد اتسعت ابتسامته: لا عليك إنه على حسابي ولن تدفع شيئا.
فشعرت بالدم يتدفق إلى وجهي وداعبته قائلاً: لا عليك إنني أعرف أن الأيرلنديين كرماء مثل الإنجليز فضحك بيتر ثم قال قدح واحد من البير. فقلت له وأنا انظر ناحية الجالسين: معذرة أنا لا أتعاطي الكحوليات.
وكان الجميع يبتسمون ثم عاد بيتر مرة أخرى وسألني قائلاً: هل لا تتعاطى المشروبات الكحولية لأنك مسلم؟ لم أكن أرغب في دفع الأديان إلى بداية اللقاء تجنباً لإثارة أي حساسية من جانب الآخرين فأجبته قائلا: ليس فقط يا بيتر بل لأنني لم أتعود على شراب الكحوليات أيضا.
فبادرني السيد هاملتون قائلا بلطف: لا عليك يبدو أن بيتر يداعبك كثيرا.
فقلت له: بالفعل بيتر شخصية لطيفة وربما لأنه أيرلندي فالأيرلنديون ظرفاء بطبيعتهم. ثم انبرت السيدة إيفون متسائلة: يبدو أنك عربي.
فأومأت برأسي قائلاً: نعم يا سيدتي ثم أردفت بسرعة قائلا وتحديداً من بلاد الخليج.
وتبادلنا حواراً حول الطقس في الخليج وزياراتنا إلى أوروبا وسألتني لماذا لم تنضم زوجتك إلينا؟ فأخبرتها بأنها مرهقة ولا تستطيع ترك الأولاد وحدهم. ونظرت ميري بانتباه وتركيز إلى إيفون وهي تبتسم ثم ألقت على بسؤال مدهش: كم زوجة لديك؟ وأدركت على الفور المغزى من سؤالها حيث يتخيل الأوروبيون من خلال فهمهم الخاطيء للإسلام أن كل مسلم لديه العديد من الزوجات فأجبتها بسرعة مداعبا: ثلاث زوجات فقط والرابعة ستكون العام القادم.
ندت آهة مكتومة من السيدة ميري فيم اخترقت أذني كلمة سباب تعني الهمجية. وضحك بيتر عاليا وقال: أنت محظوظ وأنا أريد أن أصبح مسلما. فقلت له: احترس إن آن تسمعك بوضوح.
اعتدلت على مقعدي وطلبت قدحا آخر من القهوة حيث شعرت بأن المهمة الرسمية قد بدأت بعد أن تناهت بوضوح إلى سمعي هذه الكلمة المشينة التي وجهتها كيت. ثم بادرني السيد هاميلتون أستاذ الجامعة بحديث على صيغة حوار قائلا: إنني أعتقد أن الإسلام كدين يتجاوز دوره إلى التداخل والارتباط بالسلوكيات الاجتماعية للإنسان وهذا ما يؤدي إلى التناقض بينه وبين العلم والفن رغم أنه يجب أن يبقي الدين مجرد دين فقط ولا يجب أن تصطبغ الحياة بصبغته فنحن في أوروبا لم نتقدم إلا حينما نبذنا الدين أقصد أبعدنا الدين عن الحياة وتطورها في مجتمعاتنا وحيث جعلناه داخل الكنائس فقط والحياة لا تتسع لمثل هذا الأمر وتلك هي خلاصة تجربتنا بعد مرحلة العصور الوسطي التي كانت الكنيسة تسيطر فيها وتحجر على فكر الإنسان أليس كذلك؟ تناولت رشفة من فنجان القهوة وسألته إن كان قد قرأ عن الإسلام من مصادره الصحيحة فقال: في الحقيقة لا ولكن من المتوفر من خلال الكتابات هنا عنه.
فقلت له: إذن لديك الحق في تكوين هذه الفكرة الخاطئة ودعني أقول لك شيئًا إنها فرصة جيدة باعتقادي للتحاور الفكري المبني على منطق صحيح ودلائل ثابتة ومن حسن الحظ أنك رجل أكاديمي وزوجتك السيدة إيفون كذلك وأعتقد أن السادة الآخرين لديهم ربما أرضية جيدة لمتابعة ذلك الحوار الممتع في رأيي أليس كذلك؟ كان الجميع في حالة إنصات واهتمام وهمهم السيد هاميلتون وهو يهز رأسه قائلا: بالطبع.
فقلت: إذن علينا أن نتفق من حيث المبدأ على أسس ربما تخدم الحوار.

فقال هاميلتون: ماذا تقصد بكلمة أسس هل توضح أكثر؟ قلت: إنها مباديء الحوار كالنظريات التي تحكم العالم والصدامات بينها ويشكل الدين عنصرا أساسيا فيها، ثم الإسلام وقضايا الإلحاد والمادية وموقف الدين والإلحاد من قضية أصل الإنسان والخلق والتطور والثقافة والحضارة والفن والأخلاق والثقافة والتاريخ والدراما واليوتوبيا.
انطلقت السيدة إيفون وهي تقول بدهشة وانبهار: نعم... نعم... إنه شيء رائع ثم استرسلت وهي توجه حديثها لزوجها وللآخرين... أليس كذلك؟ فقلت: حسنا، اتفقنا ثم أردفت قائلا لكن دعوني أولا وقبل كل شيء أن أعلق على ملاحظتك بشكل سريع حين ربطت بين الانفكاك من سيطرة الدين متمثلا في الكنيسة خلال العصور الوسطي والانطلاق إلى التقدم حيث إن الإسلام يختلف كلية عن المسيحية في أنه يمنح معتنقيه طرقا وأساليب ناجعة وشافية لمواجهة الحياة في كل الظروف حتي وهو في مجتمع لا ديني أو علماني لخلوه من الأسرار المقدسة والكهنوت والطبيعة المدنية للزواج في الإسلام والمدخل الفطري لعلاقة الرجل بالمرأة ورفض فكرة الحرمان الكنيسي والموقف الإيجابي من المعرفة والبحث والاستقصاء العلمي والتسامح النسبي في مسألة الزواج المختلط والاستعداد الكامل للتحاور مع عقائد التوحيد.
قال هاميلتون متسائلا: هل هذه فعلا نظرة الإسلام للحياة الاجتماعية؟ فقلت له: هذا هو جوهره الاجتماعي الحقيقي يا سيدي ودعني أكمل ما أريد قوله. فقاطعت إيفون الحديث قائلة لزوجها: إنني تواقة لاسترساله في الحديث.
فابتسمت وقلت لها: شكرًا سيدتي... وسأفعل ما بوسعي لإرضاء رغبتك في الحديث وعلى أي حال يا سيد هاميلتون نحن نعلم أن هناك نظريات أو وجهات نظر أيا كانت التسمية متكاملة عن العالم هذه النظريات وهي:
أولا: الدين.
وثانيا: النظرة المادية.
وثالثا: النظرة الإسلامية. وهذه النظريات الثلاث تعكس في ترجمتها ثلاثة أشياء مبدئية تقابلها هي الضمير والطبيعة والإنسان وسوف نجد بالتدقيق المبسط أن جميع أيدولوچيات العالم وفلسفاته والتعاليم العقائدية فيه منذ أقدم العصور وحتى عصرنا هذا ومن خلال تحليلها النهائي سوف يكون مصدرها واحدة من هذه النظريات الثلاث.
وحتى أكون أكثر تحديدا فالدين أو الضمير يرمز إلى الروح، والطبيعة ترمز إلى المادة، والإسلام ترمز إلى الوجود المتزامن للروح والمادة معـا وعلى ذلك فإن المادة لو وجـدت وحـدها فمعنى ذلك وجود الفلسفة المادية وبعكس ذلك إذا وجـدت الروح فمعنى ذلك أن الإنسان سيكون موجودا لكن من خلال حياة سوف تكون بلا معنى في غياب الدين والأخلاق. أما الإسلام فهو دين يتعامل مع مخلوق أساسه الوحدة والاتحاد بين الروح والمادة وهي الصيغة الأسمى للإنسان نفسه وبالطبع لا تكتمل الحياة الإنسانية في قيمتها الأسمى إلا إذا اشتملت على الرغبات الحسية والمشاعر الروحية معا في الكائن البشري.
وحيث لا معنى للإنسان في ظل إنكار الدين كمسألة روحية لاحتياجات الإنسان البيولوچية والحسية، وأيضا لا معنى كذلك للإنسان حين تنكر المادية التطلعات والمشاعر الروحية للإنسان.

وهنا في أوروبا ينظرون إلى الدين على أنه تجربة فردية خاصة لا تذهب أبعد من العلاقة الشخصية بالله وهذه العلاقة تتمثل في طقوس وشعائر يؤديها الفرد واسمحوا لي أيها السادة بأن أوضح شيئا هاما في هذا السياق وهو أننا بالمفهوم الأوروبي لمعنى الدين لا يمكن أن نصف الإسلام كدين بهذا المعنى لأنه في هذه الحالة يكون الإسلام أكثر من دين لأنه هنا يشمل الحياة بشتى جوانبها وتفاصيلها.
ثم تساءلت قائلا: أليس كذلك يا سيد هاميلتون؟ فقال هاميلتون: إن ما تقوله ربما يقبله العقل ولكنه صعب القبول واقعيا وفق قوانين العلم الثابتة فهل معنى ذلك وجود عنصرين أو عالمين من أصليين مختلفين ومن طبيعتين مختلفتين وهل معنى ذلك أننا نحيا حياتين يتمثلان في الروح والمادة؟ كنت في تلك اللحظة أشعر بثقة ونشاط عقلي متوهج فبادرته قائلا: يجب أن لا يكون السؤال بهذه الطريقة بل يجب أن يكون هل نفعل ذلك ونحن فاهمين لحقيقته؟... هذا هو السؤال الذي ينبغي أن يكون، وهنا يكمن المعنى النهائي للإسلام أن الحياة مزدوجة ومنذ أن »قالوا بلي« أصبح من المستحيل عمليا أن يحيا الإنسان حياة واحدة وبذلك يكون الإسلام عبارة عن منهج حياة متكاملة.
إنه بعبارة مختصرة وحدة لا تنفصم عراها بين الدين والنظام الاجتماعي كمبدأ لتنظيم ذلك الكون.
ساد الصمت لبرهة قطعه السيد هاميلتون بقوله: اسمح لي أن أقول لك إن العلم ينظر إلى أصل الإنسان كنتيجة لعملية طويلة من التطور ابتداء من الأشكال الدنيا للحياة كما ينظر العلم إلى الكائن البشري باعتباره إنسانا من خلال بعض الحقائق المادية الثابتة فيه كالمشي قائما وقدرته على الحديث بلغة منطوقة ومفصلة إضافة إلى الصناعة التي يقوم بها بمعنى أنه ابن للطبيعة ويبقى دائما جزء منها.
وفي جانب آخر يقول الماديون إن الإنسان هو الحيوان الكامل وأن الفرق بين الإنسان والحيوان يبقى فقط فرقا في الدرجة وليس النوع. كما قال داروين في نظريته وآخرون كچون أوتسون وچورچي لوكاس وفردريك أنجلز.
كان الجميع صامتين فيما عدا چين التي أشارت إلى بيتر بيدها ليأخذ قدحا من الشراب يبدو أنه أشار إليها به وبسرعة كان على مقعده كما كانوا جميعا ينظرون ناحيتي.
رشفت آخر رشفة من قهوتي التي بردت ونظرت ناحية السيد هاميلتون قائلا: إن ما قاله هؤلاء ومنهم إنجلز الذي قال في معرض أفكاره مثلا أن يد الإنسان ليست عضو العمل فقط وإنما هي نتاج العمل أيضا حيث اليد اكتسبت هذه الدرجة الرفيعة من الإتقان الذي استطاعت من خلاله أن تنتج لوحات رافايل وتماثيل ثورفالدسن وموسيقى باچانيني لكنه أغفل الحقيقة الهائلة وهي الروح الإنسانية.

ثم هل تختلف معي في أن رافائيل أبدع لوحاته بروحه وليس بيده؟ والأمر ينسحب على تماثيل ثورفالدسن وباحانيني في موسيقاه.
إن النمو البيولوچي كما يقول الماديون لا يمكن أن يجعل بيتهوفن يبرع في أعظم أعماله الموسيقية وهو مصاب بالصمم ولا يمكن أن يمنحنا لوحات رافائيل ولا حتى صور ورسوم الكهوف البدائية منذ ما قبل التاريخ ويجب علينا أن نتفق على أن الكائن البشري ليس مجموع الوظائف البيولوچية المختلفة التي يؤديها فقط، كذلك الوضع بالنسبة للإبداع الفني المعبر عن مشاعر روحية إنسانية فاللوحة الفنية لا يمكن فقط تحليلها وترجمتها إلى مجرد مجموعة ألوان ولا يمكن تحليل القصيدة التي يكتبها شاعر مثلا إلى مجموعة من الألفاظ. ودعني يا مستر هاميلتون أوضح ما أعنيه بشكل أكثر تفصيلا... مثلا الكنيسة تبني من كمية محددة من الأحجار ذات شكل معين وبنظام معماري معين وكمية أيضا محددة من المواد الأخرى اللازمة للبناء والأخشاب لكن تلك العملية ليست كل الحقيقة عن الكنيسة فرغم كل شيء يبقى هناك الفرق بين الكنيسة وبين معسكر حربي.
وأيضا من الممكن أن تكتب تحليلا لغويا لقصيدة مثلا من قصائد جوته ورغم ذلك لا تستطيع أن تقترب خطوة واحدة من جوهر تلك القصيدة، وبالطبع القاموس اللغوي يحتوي على جميع الكلمات وهو بالغ الدقة.
بمعنى أن هناك جوهرا ومعنى لا يمكن الوصول إليه، وبمعنى آخر نهائي أن العلم كما ذكرت بدءا من علم الحفريات وعلم هيئة الإنسان وعلم النفس كل هذه العلوم لم تصنف سوى الجانب الخارجي الذي لا معنى له في الإنسان وفي النهاية يبقى الإنسان مثله كمثل اللوحة الفنية أو الكنيسة أو القصيدة أكثر من مجرد كمية ونوعية المادة التي تكونه إن الإنسان أكثر من جميع ما تقوله تلك العلوم مجتمعة عنه.
كان هاميلتون وهو أستاذ الأدب في الجامعة يبدو وكأنه لم يقتنع ولأول مرة تدخلت كيت طالبة الجامعة في الحوار قائلة: ربما كان المستر هاميلتون في حاجة للمزيد من الإقناع ونحن أيضا لأنك بذلك تنكر نتائج علمية لعلماء ومفكرين كبار ورغم إحساس الشخص بقوة منطقك إلا أنه تبقى الحاجة للمزيد.
فأشرت لها بيدي شاكراً مداخلتها واستطردت قائلاً: طبقا لنظرية التطور فإن أقدم إنسان هو الأب الأكبر وبالمنطق هذا فإنه سوف يكون أكثر من الأنواع البشرية بدائية ودعينا نقول إنه نوع من أكثر أنواع الحيوان تقدما ولكن إذا قارنا بين هذا الإنساني البدائي وبين أكثر أنواع الحيوان تقدما لوجدنا أن هناك فرقا جوهريا ثانيا.
انظري مثلا إلى قطيع من الحيوانات وهي تبحث عن الطعام وتتصارع من أجل البقاء ثم انظري إلى الإنسان البدائي الخائف المشوش بمعتقداته ومحرماته الغريبة أو الغارق في أسراره ورموزه الغامضة هذا الفرق لا يمكن أن نرجعه إلى مجرد الاختلاف في مراحل التطور فحسب، صحيح أن الإنسان تطور ويتطور دائما لكن ذلك يثبت فقط ويصدق بالنسبة لتاريخه البشري الخارجي وباعتباره مخلوقا من قبل خالق عظيم فقط أنصب في وعيه ليس فقط أنه مختلف عن الحيوان بل أنصب أيضا في وعيه أن معنى حياته لا تتحقق إلا بإنكار الحيوان الذي بداخله. خذي مثلا العقل لا يقبل ولا يوحي للإنسان أن يضحي بنفسه في سبيل الآخرين أو أن يرفض بعض رغباته أو أن يقلل من حدة ملذاته الجسدية فإذا كان الإنسان هو ابن الطبيعة كما يقولون فكيف تسني له أن يبدأ في معارضة الطبيعة؟ وإذا تخيلنا تطور ذكاء الإنسان إلى أعلى درجة فسنجد بالتالى أن حاجاته ستزداد من ناحيتي الكم والنوع ولن يتلاشى شيء منها فقط ستكون طريقة إشباع هذه الحاجات أكثر ذكاء وأفضل تنظيما.
إن مبدأ وجود الحيوان هو المنفعة والكفاءة وليس هذا هو الحال بالنسبة للإنسان على الأقل فيما يتعلق بخاصيته الإنسانية المتميزة ورغم ذلك فإنه يمكنني القول إن الحيوانات في مستوياتها العليا تشترك مع الإنسان في امتلاكه للشعور والذكاء ووسائل الاتصال والرغبة في إشباع الحاجات والالتحاق بمجتمع أو نظام اجتماعي خاص وبعض أشكال الاقتصاد ومن هذه الزاوية بالذات يبدو الإنسان مشتركا بشكل ما مع عالم الحيوان. توقفت قليلا ثم تساءلت وأنا أدور ببصري تجاه الجالسين: ألا نتفق على ذلك؟ أجاب السيد ويليامز والآنسة كيت في وقت واحد موافقين فيما هز هاميلتون رأسه وقالت إيفون وهي تشير بيدها علامة التأكيد. تماماً... تماماً. فقلت لهم إن القرآن وهو كتاب المسلمين المقدس قد ورد به نص صريح بهذا الخصوص في آية من سورة الأنعام قال تعالى: {وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَطَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَافَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ من شَيْءٍ ثُمَّ إلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ})الأنعام: 38(.
لكن ليس في عالم الحيوان أي تشابه ولو في أدني درجاته وبدائيته فبالنسبة للدين أو السحر أو المحرمات أو الفن أو المحظورات الأخلاقية إلى غير ذلك مما يحيط بحياة الإنسان سواء فيما قبل التاريخ أو في عصرنا الحديث إذ أن تطور الحيوانات ربما يبدو منطقيا يسهل فهمه إذا قورن بتطور الإنسان البدائي الذي تسيطر عليه محرمات ومعتقدات غريبة، فالحيوان مثلا عندما يتحرك بغية القنص فإنه يسلك سلوكا عقلانيا جدا حيث لا يدع أدني فرصة متاحة إلا واقتنصها وهنا لا مجال للمعتقدات أو الأساطير الخرافية وما يشبه ذلك.
ومثالاً آخر النحل الذي يتعامل مع أعضاء مجتمعه عديمي الفائدة بقسوة شديدة حيث يقذف بها خارج الخلية بكل حسم وبساطة وهو مجتمع غاية في التنظيم اجتماعيا لكنه خال تماما من كل ما يمت للإنسانية بصلة كحماية الضعيف ومساعدة المعوق والحق في الحياة وتقدير الخبرات السابقة إلى آخر المسميات الإنسانية الأخرى، وبالنسبة للحيوان تبدو الأشياء كما هي عليه أما الإنسان فإن الأشياء بالنسبة له تحمل دلالات يتخيلها هو ربما تفوق أهميتها في نظرة دلالاتها الواقعية.
فمن السهل أن نفهم منطقيا تقاتل الحيوانات من أجل البقاء لكن تعالوا للإنسان البدائي الذي يخضع نفسه ومجموعته العائلية لأنواع مختلفة من المحرمات كالصيام والصلوات أو ممارسة رقصات خاصة أو حدوث أحلام معينة ومراعاة علامات خاصة، وحين توشك اللعبة على الابتداء تحدث سلسلة أخرى من الشعائر أو الطقوس حتي النساء في البيوت يخضعن للكثير من المحظورات التي إذا انتهكت فإن مهمة الصيد قد تفشل وتتعرض حياة الرجال الصيادين للخطر.

ونحن جميعا نعرف أيضا أن أهل المجتمعات البدائية كانوا يمثلون الحيوانات التي يأملون في قتلها قبل الشروع في الصيد وكانوا يعتقدون أن لهذا التمثيل تأثير حاسم على نجاح عملية الصيد، وهو ما يسمي بسحر الصيد وكان الشباب يقبلون أعضاء في جماعة الصيد بعد إخضاعهم لطقوس معقدة وقد وصف كتاب وعلماء ومؤرخون أمثال هوبرت وموسي هذه الطقوس التي تشتمل على ثلاث مراحل هي طقوس للتطهر وطقوس للتشريح ثم طقوس للقبول وهكذا فبينما الإنسان يرسم أو يصلي ويمارس طقوسه قبل العملية كان الحيوان يشرع في مهمته للقنص بشكل ومنطق محكم حيث يفحص الأرض وينصت جيدا ثم يتابع فريسته من الخلف بادئا الهجوم.

وبالنسبة إلى الحياة النفسية للإنسان المعاصر لقد قيل في مؤتمر علوم الحفريات بالنص »حتي رجل الكهف الذي عاش قبل سبعة ألاف سنة مضت عاني من هذا الدوار الميتافيزيقي وهو مرض الإنسان الحديث ومن الواضح أن هذا ليس استمرارا لطور بيولوچي ولكنه أكد فصول المأساة التي كانت قد بدأت بمقدمة في السماء«.

ولأول مرة منذ بدء النقاش يتململ السيد باركر صديق الآنسة كيت مقطباً وجهه وهو يتساءل قائلاً:

إلى ماذا تريد أن تخلص من حديثك هذا؟ ثم أردف قائلاً أقصد أي نتائج تريد استخلاصها من هذا الشرح؟ قلت: إنني أريد أولا أن نقتنع جميعا أننا مخلوقات لخالق عظيم خلق وصنع ونظم هذا الكون كله وأن ننحي جانبا فكرة أو نظرية تسيطر على عقول البشر وهي نظرية داروين حول النشوء والارتقاء. ألستم معي في ذلك؟ قالت إيفون وهي تهز رأسها: بالتأكيد... بالتأكيد.. إنني أوافقك تماما في طرحك المنهجي والعلمي والمنطقي... نعم أوافقك تماما حيث أن أينشتين مثلا هدم نظرية نيوتن عن الكون وبالمقابل فإن إخفاق الحضارة المادية والفلسفة من أفكار متماثلة فلوكنا حقا أبناء هذا العالم فلن يبدو لنا فيه شيء بخس أو شيء مقدس لكونها أفكار مناقضة للعالم الذي نعرفه.

وهي في نفس الوقت برهان عظيم على أن لنا أصلا آخر لا نستطيع أن نتذكر شيئاً عنه وعلى ذلك فإن نظرية داروين تحطمت وانتهت.

ودعني يا سيد هاميلتون أضيف شيئاً آخر في صورة تساؤل: لماذا كان الإنسان دائم التعبير عن مخاوفه وإحباطاته من خلال الدين؟ لماذا ومن أي شيء يبحث الإنسان عن الخلاص؟. إنه حتي في أكثر أنواع الحيوانات تطورا لا نستطيع أن نجد أدني أثر لعبادات أو محرمات بينما نجد أن الإنسان حيثما ظهر يظهر معه الدين والفن أما العلم فإنه حديث النشأة نسبيا بالنسبة لهما.

لقد كان الإنسان والدين والفن دائماً في تلازم وثيق ولم يهتم أحد بهذه الظاهرة التي تحمل في ثناياها إجابات عن بعض الأسئلة الحاسمة عن الوجود الإنساني.

إن ظاهرة الحياة الداخلية في باطن العقل الإنساني والتطلع الدائم للسماء وهي ظاهرة ملازمة للإنسان وغريبة عن الحيوان تظل مستعصية على أي تفسير منطقي.

إنها نزلت من السماء يا سيد هاميلتون من لدن خالق عظيم واحد أحد، ولأنها ليست نتاجا للتطور فإنها أي هذه الظاهرة تقف متعالية عنه ومفارقة له أي التطور كما يقول داروين، ودعني أيضاً أورد لك استنتاجات العالم الفرنسي هنري سيمل بعد دراسته لرسوم إنسان النيندرتال في فرنسا حيث استنتج هذا العالم أن الحياة النفسية للإنسان البدائي لا تختلف إلا قليلاً جداً عن الحيوان.

وبذلك أيها الأعزاء وعلى هذا النحو كان الحيوان صائدا ممتازا وكذلك كان الإنسان البدائي لكن كان الإنسان في الوقت نفسه المخترع الذي لا يكل ولا يمل صانع العبادات والأساطير والمعتقدات الخرافية والرقصات والأوثان دائم التطلع إلى عالم آخر حقيقي أو متخيل ولذلك فإن الفرق ليس في مراحل التطور بل الفرق هو في الجوهر نفسه.

كان الجميع ينصتون باهتمام بالغ فيما قال السيد هاميلتون: إنك بذلك تحطم نظرية داروين عن الإنسان. فقلت له: إنني يا سيد هاميلتون أنقل أيضاً عن علمائكم وأحاول قدر طاقتي أن أستخدم وسيلة حوار تتفق مع ثقافتكم وعقليتكم وأرجو أن ترجع في ذلك إن أردت إلى مصادر كهنري برجسون أو لوسبان هنري أو هج ولز أو أتكنسون إن الإنسان لا يعيش في حياته كابن للطبيعة ولا يسلك ذلك بل يعيش ويسلك كمغترب عنها وبشعور أساسي هو الخوف إلا أن هذا الخوف ليس خوفا بيولوچياً كخوف يستشعره الحيوان بل هو خوف روحي كوني بدائي موصول بأسرار الوجود الإنساني نفسه وبألغازه لقد أطلق عليه مارت هيدجر مقولة »العامل الخالد الأزلي المحدد للوجود الإنساني« إنه خوف يمتزج بحب الاستطلاع والمعرفة والدهشة والإعجاب والنفور. كل تلك المشاعر المختلفة تكمن على الأرجح في أعماق ثقافتنا وفنوننا، وإن وضع الإنسان البدائي وحده هو الذي يفسر لنا ظهور المحظورات وأفكار النجاسة والسمو واللعنة والقداسة وغير ذلك.

والفطرة التشاؤمية فعلت الشيء نفسه بنظرية داروين. وقالت إيفون: ألا تري ذلك يا هاميلتون؟ لقد وجهت تساؤلها إلى زوجها الذي بادر قائلاً: إنني رغم ميلي إلى الاقتناع بنظرية داروين إلا أنها في الحقيقة عجزت وبها قصور معيب واضح أن تفسر وبطريقة مقنعة ظهور التدين في الحياة البشرية ولا وجود لهذه الظاهرة في حياتنا الحديثة وعادة ما يتردد تساؤل خطير وهو لماذا يصبح الناس نفسيا أقل شعورا بالاكتفاء أو القناعة عندما تتوافر لهم متع الحياة المادية أكثر من ذي قبل؟ ثم لماذا تزداد حالات الانتحار والأمراض النفسية والعقلية مع ارتفاع مستويات المعيشة والتعليم؟ وأيضاً لماذا لا يعني التقدم والعلم والمعرفة مزيدا من الإنسانية؟ انبرت إيفون قائلة بشكل قاطعت فيه زوجها السيد هاميلتون: إنني أؤمن تماما وباعتباري أنتمي إلى عالم الفن أن الفن في جوهره الحقيقي ينتمي إلى الدين بشكل لا يحمل تأويلا حيث إن كل عمل فني يحمل إيحاء ما إلى عالم لا ننتمي إليه ولم نخرج منه لكننا خلقنا فيه، وبمعنى آخر فإن الفن عبارة عن ذكريات أو توجه إلى الماضي هناك إلى ذلك العالم الآخر إنه في الحقيقة ابن للدين.

قلت للسيدة إيفون: دعيني أؤكد كلامك وأزيد عليه شيئاً مهما هو أن الفن في صدام طبيعي مع هذا العالم ومع جميع علومه وفي صدام حقيقي مع داروين وهذا الصدام أو تلك المعارضة هي في الحقيقة معارضة دينية فالدين والفن والأخلاق فرع لسلالة واحدة انبثقت بفعل الخلق الإلهي.

قالت إيفون معقبة ومؤكدة في نفس الوقت: إن الفن يرد دَينه للدين بوضوح أيضاً وذلك من خلال النحت والرسم والموسيقى تعال مثلا إلى أعظم الأعمال الفنية في عصر النهضة إنها تكاد كلها تحمل الطابع الديني حيث لا توجد كنيسة في إيطاليا أو هولندا إلا وتعتبر متحفاً فنياً. ثم وجهت حديثها إلى الآخرين قائلة: انظروا إلى أعمال مايكل أنجلو وتماثيله التي تعتبر اقتداء لدينه المسيحي إنهم يقولون عن هذه الأعمال إنها تعتبر إنجيلا من الألوان والأحجار، وتعالوا إلى أوبرا هاندل المسماة أوراتوريوس إنها نوع من الأوبرا الروحية.. موسيقى دينية عظيمة كما في سول، شامشون، والمسيح، ودعونا أيضاً نتأمل أعظم مؤلفين للموسيقى خلال القرن العشرين وهما دبوسي وأسترافنسكي التي تنصب في قالب ديني لقد ألف دبوسي موسيقى القديس سيباستيان الشهيد، وألف أسترافنسكي سيمفونية المزامير والقداس.

وانظروا إلى الموضوعات الإنجيلية في لوحات شاجال والاستلهامات الدينية لمؤلف موسيقى البيانو العظيم أوليفرمسيان وأيضاً الأعمال العظيمة للبالية لموريس بيجار كبودلير وناكتي والظافرون والتي استلهمها من أساطير ناجز وتصوف الشرق الأقصى إنني أستطيع أن أتحدث في ذلك طويلا لأعدد وأوكد ما يقوله ذلك الرجل العربي المسلم.

اشرت بيدي لأقول شيئا بعدما شكرت إيفون ثم قلت: أريد أن ألخص الأمر في جملة واحدة هي أن الفن باعتباره طريقة للعمل وليس طريقة للتفكير فإنه من خلال بحثه عما هو إنساني أصبح باحثا عن الله. سادت لحظة من الصمت قطعها السيد ويليامز قائلاً: عظيم أن نصل معاً إلى هذه النقطة الحاسمة لكن من الثابت والمعروف أن الدين يتناقض مع الدولة المدنية أو النظم العلمانية التي أثبتت من خلال هذه الحضارة التي نعيشها الآن وجودها وسلامة منطقها ونحن نعرف أن الدين هو علاقة خاصة بين الفرد وعقيدته لا تنسحب على الحياة والعلاقات والصراع الإنساني.

كان السيد هاميلتون على وشك التدخل في الحديث لكنه صمت ربما لأن السيد ويليامز طرح ما كان هاميلتون يريد طرحه.

قلت له: دعني أفيض في إجابتي وتعليقي على تلك المداخلة لقد اتفقنا قبل قليل أن هناك خالق عظيم خلق هذا الكون وكائناته، واتفقنا أيضاً وبشكل حاسم على أن الحياة لا تصلح ولا يستقيم حالها دون قانون علوي من لدن ذلك الخالق العظيم، ليحمي الإنسان من هجير النفس وتوقها إلى الخالق الأعظم إلى تلك القوة التي يلجأ لها الإنسان بضعفه وهشاشته ولذلك فإن تلك الحضارة هي حضارة الوسائل وليست حضارة النفس الإنسانية.

وقلت هل تختلف معي في أن الحضارة أعطت الإنسان وسائل الراحة والرفاهية التي خدمت جسده؟ ولو أنها بالمقابل! وأعتقد أنك أيضاً لن تختلف معي في أنها دمرت صحة الإنسان وهددت وجوده وهذا يعني أنها أحادية الجانب وقاصرة إنسانيا. قال ويليامز: إني أتفق معك تماما.

قلت له: هنا بيت القصيد إن الإسلام كدين وعقيدة يحمل في جوهره وحقيقته الحضارة الحقيقية للنفس البشرية من الداخل وللجسد الإنساني من الخارج. إن الإسلام باختصار شديد غير مخل، هو الوحدة ثنائية القطب.

أما فكرة الجنة الأرضية فهي في الحقيقة فكرة يهودية في أساسها خذ مثلا أحد الكتب التي نسبها اليهود إلى نبي الله أيوب وهو يسمي Book Fali of وهو عبارة عن حلم بالعدالة التي سوف تتحقق على الأرض، وخذ أيضاً أحد أكبر مفكري اليهود في العصور الوسطى وهو موسي بن ميمون الذي قرر أن الخلود فكرة غير ذات موضوع تنقض نفسها بنفسها، وأيضا الفيلسوف اليهودي يندكت سبينوزا الذي صرح بأن العهد القديم لا يذكر شيئاً عن الخلود، كما لاحظ أرنست رينان ومن بعده برديابيف حقيقة أن اليهود لم يستطيعوا أن يتقبلوا فكرة الخلود لأنها لا تنسجم مع فكرتهم عن العالم الذي لا يرون فيه سوى هذا الجانب الدنيوي، ويقول هسداي كريمكاس إن المادة هي جسد الله.

ربما تتفقون معي في أن الدين اليهودي ظل ضحلا وسطحيا في جوهره إذا ما قورن باهتماماته القومية السياسية والدنيوية.

وهو يناقض المسيحية تماماً، خذ مثلا كتابات سبينوزا التي تجعلك تضع مصطلح الطبيعة بدلا من مصطلح الألوهية وبذلك يكون قد قربه من مصطلح الطبيعة لحد التطابق. ولن ننسي طبعا أن سبينوزا كان مفكرا يهوديا أصيلا.

وإن مملكة الرب التي كان اليهود يتنبأون بها قبل ظهور المسيح كان مفروضا من وجهة نظرهم أنها ستتحقق على الأرض وليس في السماء كما تؤمنون أنتم مثلا باعتباركم مسيحيون وقد تبني هذه الفكرة مثلا القديس أوغسطيس كنمط للمسيحية وكارك ماركس للاشتراكية.

إن فكرة الماسونية عن اليقظة الأخلاقية للبشر عن طريق العلم هي فكر وضعية يهودية، ومن الأدلة التاريخية أيضا على ذلك أن اليهود لم يساهموا عادة في الثقافة لكنهم كانوا يساهمون في الحضارة ومن خلال التتبع التاريخي يبدو اليهود وكأنهم في هجرة دائمة من حضارة آفلة بائدة إلى حضارة وليدة سائدة، وقد حدث ذلك أيضا في الغرب هنا وفي هذا يقول برتراند رسل إن اليهود لم يكن لهم أي تأثير على الثقافة في البلاد المسيحية وذلك في كتابه تاريخ الفلسفة الغربية.

وما ما إن تسود الثقافة في مدينة من المدن حتي يظهر اليهود وقد نشأت مستعمرات لهم في كل المدن الرئيسية على امتداد التاريخ فقديما نجد مدن صور وصيدا وأنطاكية والقدس والإسكندرية وقرطاجة وروما، وفي أسبانيا الإسلامية الأندلس نجد مدن قرطبة وغرناطة وتوليدو وأشبيلية، وفي بداية عصر النهضة نجد مدن أمستردام وفينيسيا ومارسيليا، وفي العصر الحاضر كل مدن العالم الكبري وخاصة المدن الأميريكية .

هذه هي النظرية اليهودية التي ساروا على خطاها عبر التاريخ وحتى إنهم كان لهم نصيب وافر في تمويل رحلة كولومبس لاكتشاف عالم جديد بدأ يمارس الحضارة منذ بداياتها الأولي وهم يقولون إن كولومبس نفسه كان يهوديا ورائد العصر النووي الحديث أينشتين يهودي أيضا.

وهكذا كان اليهود في ظل الظروف حملة نظرية التقدم المادي الخارجي بمثل ما كان المسيحيون حملة التقدم الداخلي الروحاني ويأتي هنا الإسلام بعظمته وفكره الجامع الشامل ليجسد الوحدة ثنائية القطب الدين والدنيا في تشريع وجوهر لو عرفتموه وفهمتموه حق الفهم لتقاتلتم على الدخول فيه وهنا تقبع المشكلة .

ثم تأتي المسيحية أو الدين المسيحي الذي لا يهتم بالدنيا ولا بتنظيم العلاقات الاجتماعية ويركز فقط على اللاهوت وحيث لا يصح في المسيحية شطر الطاقة الإنسانية إلى اتجاهين متعاكسين اتجاه السماء واتجاه الارض ففي إنجيل متي مثلا في الإصحاح السادس يقول »فلا يستطيع إنسان أن يخدم سيدين فهو إما أن يكره أحدهما ويحب الآخر أو يتمسك بأحدهما ويستخف بالآخر إنك لا تستطيع أن تخدم الله وتخدم مأمون ويقصد بمأمون هنا شيطان الشهوة والمال« ومعنى ذلك أن الدين المسيحي ينبذ أي توجه لتغيير العالم الخارجي أو محاولة جعله عالما كاملا وذلك من منطلق أنه دين مجرد يحكم على أي اعتقاد إنساني يقول بأن تنظيم العالم الخارجي أو تغييره يؤدي إلى زيادة في الخير الحقيقي للمجتمعات بأنه خطيئة.

وبمعنى آخر إن الدين المسيحي في جوهره هو إجابة على سؤال يقول كيف تحيا في ذاتك وتواجه هذه الذات؟ وليس إجابة على سؤال يقول كيف تعيش في العالم مع الآخرين؟ ولذلك فإن الدين المسيحي في المعنى العام هو معبد أو ملاذ منعزل على قمة جبل على الإنسان أن يرتقي إليه تاركا خلفه عالم خاو لا سبيل إلى إصلاحه .. عالم يهيمن عليه الشيطان وحده. أما الإسلام فهو المادة والروح معا هو الدين والدنيا معا هو الذات الإنسانية والذات الاجتماعية معا إنه في حقيقته عالم متكامل أو الوحدة ثنائية القطب.

وفي هذا يؤكد الإسلام من خلال القرآن الكريم وهو أمر لا يعرف في الأناجيل أن الله خلق الإنسان ليكون سيدا في الأرض خليفة، وأن الإنسان يمكنه تسخير الطبيعة والعالم من خلال العلم والمعرفة والعمل أي بالعلم والفعل.

ومن هذه الحقيقة وبتركيز الإسلام على القانون والعدالة يبرهن الإسلام أنه لا يستهدف فقط الثقافة وإنما يسعى لبناء حضارة أيضا ومن الدلائل على ذلك موقف الإسلام من المحرك الأساسي والرئيسي لعجلة الحضارة وهي القراءة والكتابة فكان أول ما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم هو مسألة القراءة {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ } (العلق: 1) وهناك بالقرآن العديد من الآيات التي توضح بجلاء منهج الإسلام في هذا السياق. إن المسيحية حين تقول : »لا تقلق على حياتك فتقول ماذا ستأكل؟ وماذا ستشرب« إنجيل متي وحين تقول : »إذا ضربك أحد على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر ولم أنت قلق على ثيابك؟ انظر إلى الزئبق في الحتل كيف ينمو إنه لا يكدح ولا يغزل« إنجيل متي.

يقول القرآن الكريم في سعيه لتأصيل التوكل والعمل وليس التواكل {وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً} (النبأ : 11).

ويقول {اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً } (غافر : 61).

ويقول {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ} (الجمعة : 10) .

ويقول {والَّذينَ إذَا أصَابَهُمْ الْبَغْي هُمْ يَنتَصِرُونَ * وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ } (الشورى 39 - 40) .

ويقول { كتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ } (البقرة: 216) .

ويقول {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ } (الحج: 39).

هذا هو الإسلام العملي الذي يدفع الإنسان لأعمار الكون بعد أن يصلح الإنسان نفسه عبر التزامه بمنهج الدين، وإذا تخيلنا التربية الإسلامية للفرد فإن الفرد هو في النهاية الذي يشكل ذلك المجتمع العالمي الذي يسعى إليه الإسلام في جوهره.

والإسلام هو الإنسان نفسه ففي الإسلام ما في الإنسان فيه الومضة الإلهية وفيه تعاليم عن الواقع والظلال في نفس الوقت.

* * *

كان الدفء يسري في الأجساد رغم المطر الذي يتهاطل في الخارج وكانت الساعة قد قاربت على الثانية صباحاً ولم يبد على أي من الجالسين إحساس بالملل أو الرغبة في النوم لكن السيدة إيفون بادرتني حين لاحظت أنني أنظر في ساعتي قائلة: أرجو أن لا تقلق بشأننا فنحن هنا في إجازة استرخاء وليس لدينا أثمن من لحظات نقاش مثمر ثم نظرت إلى الآخرين قائلة أليس كذلك؟ فأومأوا برؤوسهم علامة الموافقة.

وانبري السيد هاميلتون متسائلا: إذا كان الأمر كذلك ونحن متفقون تقريبا على قضايا الخلق والدين ألا تعرض لنا الآن بشئ من التفصيل عن الإسلام كدين ومنهج حياة؟ فقلت له وأنا أبتسم : أرجو ألا أكون قد أطلت عليكم وربما بعضكم يتوق إلى الفراش الآن ولندع ذلك للغد إذا أردتم.

فقالوا جميعا : اطمئن نحن معك إلى أن تعتذر أنت عن البقاء معنا.

وقال بيتر ضاحكا : إنك تستحق الآن قدحا من القهوة القوية لتزداد نشاطا. فقلت له مبتسما : فقط أريد قدحا من عصير الفواكة إن أمكن ذلك.

فأجاب بيتر بسرعة وهو ينهض من مجلسه ليحضر ما طلبته: بكل سرور.

قلت وأنا أوجه حديثي للسيد هاميلتون : اسمح لي قبل أن أبدأ الحديث بتوضيح نقطة هامة وأصيلة هي وحدانية الله ففي المسيحية لم تبلغ كدين أبدا الوعي التام بوحدانية الله.
قد نجد فيها مفهوما مفعما بالحيوية عن الألوهية لكن لا توجد بها فكرة واضحة عن الله وهنا كانت مهمة الإسلام كدين عن طريق النبي محمد أن يجعل هذه الفكرة الإنجيلية التي لم تبلغ وعيها التام بوحدانية الله، كان عليه أن يجعلها أكثر وضوحاً وأقرب إلى عقل الإنسان وفكرة أن الله هو الإله الواحد الذي لا شريك له المنفرد في وحدانيته وقدرته وهو الذي تتوق إليه النفوس وتصبوا إليه الأفكار النبيلة في العقول.
الإله في الأناجيل أب لكنه في القرآن رب العباد وخالقهم ، الإله في الأناجيل محبة لكنه في القرآن جلال يستحق الحمد والثناء.
هذه الخاصية في الفهم المسيحي للألوهية انقلبت فيما بعد إلى سلسلة من الصور المختلطة ضحت بالوحدانية الأصلية في سبيل الثالوث وتقديس الأم العذراء والقديسين.
أما الإسلام فلا يوجد به مثل ذلك ورغم ما مر به من نكبات تاريخية ظل الإسلام أنقي أديان التوحيد. في المسيحية الإله هو رب لعالم الأفراد »نفوس الناس« بينما يملك الشيطان زمام العالم المادي ولذلك فإن الاعتقاد المسيحي في الله يتطلب الحرية الداخلية للنفس.
اما الإسلام فإن عقيدته تضيف أيضا الحرية الخارجية »الله أكبر« و »لا إله إلا الله« هما ثورة عظمي أيضا بل أعظم القوى الثورية ضد الشيطان الدنيوي بمعناه العام الشامل للظلم والغبن والطغيان والاستعباد للشهوات والمال.
والمسيحية لم تستطع تقبل فكرة أن يظل الإنسان الكامل إنسانا ومن ثم استنتج المسيحيون من كلام عيسي فكرة الإله الإنسان واعتبروا عيسي ابنا لله ولكن محمدا ظل إنساناً فقط حيث أعطى المثل الأعلى للإنسان والجندي المقاتل أما عيسي عليه السلام فقد خلف انطباعاً ملائكياً.
ولذلك فإن الإسلام كدين يبدأه الإنسان بالاعتقاد الجازم الذي لا يقبل تأويلا أو مناقشة وهو لا إله إلا الله وحده لا شريك له.
إنه الاعتقاد الفوري والتحرر الكامل من سطوة الشيطان وهيمنته والذي يمثل كما ذكرت أنفا في معناه الاستعباد الإنساني لأي من الكائنات المخلوقة للخالق مادية كانت أم معنوية، أشخاص كانوا أم نزوات وشهوات ومال.
إن الشهادة في حقيقتها تعني التسليم الكامل والتوجه التام روحاً وجسداً لله الخالق العظيم. ألا تعتقدون معي أنها الثورة الحقيقية التي تحرر الإنسان من الإنسان ؟ ألا ترون أنها الثورة الحقيقية التي تؤكد علاقات التآخي الإنساني في حقيقته.
ثم الشهادة بأن محمداً نبي الله ورسوله الذي أرسل بالهدي ودين الحق لبني البشر كافة دون تفريق أو تمييز بين غني وفقير أو بين أسود وأبيض إنها الوحدة والمساواة داخل إطار التوحيد والذي سينبثق عنه منهج حياة كاملة متكاملة للبشر كافة وتأملوا معي هذه الآيات العظيمة :
{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} (الحجرات : 13) .
{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً} (النساء : 1)
{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } (الحجرات : 10) .
هذا هو الأساس الأول والعنصر الروحي الأصيل الذي يبدأ به هذا الدين ثم نأتي إلى الصلاة .
الصلاة في الإسلام ليست فقط مجرد تعبير عن موقف الإنسان من العالم وإنما هي في نفس الوقت انعكاس للطريقة التي يريد بها الإسلام تنظيم هذا العالم حيث تعني الصلاة أمرين أو هدفان أساسيان ورغم انفصالهما منطقيا فإنهما يتوحدان في الحياة الإنسانية، حيث إنه لا صلاة بدون طهارة، ولا عمل روحي أو جهد روحي بدون جهد مادي أو اجتماعي يصاحبها. وعلى ذلك فإن الصلاة في الإسلام أعظم تعبيرا لما نطلق عليه الوحدة ثنائية القطب وبرغم بساطة الصلاة فإنها تعتبر المعادلة الحقيقية كما تعتبر في نفس الوقت الكود أو الشيفرة. والصلاة في الإسلام باطلة بدون الوضوء بينما في الاديان المجردة كالمسيحية مثلا أو الهندوسية يمكن أداء الصلاة مع وجود القذارة المقدسة التي عرفتها بعض نظم الرهبنة . فالرهبان الذين يتجنبون النظافة يشعرون شعورا دينيا أصيلا أن إغفال البدن بالإهمال المتعمد لنظافته يقوي العنصر الروحي في الصلاة وينطلق هذا المنطق من افتراض أن الصلاة من حيث المبدأ التي قامت عليه ستكون صلاة أصدق إذا تخلصت من أي إضافة أو عناية بالبدن فكلما قل حضور البدن في فهمهم كلما زاد التأكيد على الروحي ومن بين المراجع المسيحية النظرة الإكليريكية البارزة فمن الذين أخذوا هذا الجانب من الصلاة إلى مراده الأقصى يعقوب الرسولي ويصور المدي الذي يمكن أن يصل إليه الإهمال المتعمد للبدن ما ذكر عن تجنب النظافة في بدايات القرون الوسطي فيما يلي »كان ينظر إلى النظافة على أنها شئ بغيض وكان الرهبان رجالا ونساء يفاخرون بأن الماء لم يمسس أقدامهم إلا عندما كانوا يضطرون لعبور الأنهار«، (برتراندرسل تاريخ الفلسفة الغربية).
وأعود مرة أخرى للصلاة في الإسلام فالوضوء وحركات الصلاة يشكلان الجانب العقلي فيها ووجود هذا الجانب لا يجعل الصلاة قاصرة فقط على جانبها الروحي المجرد بل يضيف إليها النظام والصحة معا وبمعنى آخر ليست الصلاة تأملا روحيا فقط بل نشاط عملي أيضا، خذ مثلا الوضوء فجراً بالماء البارد ألا يوجد فيه شئ من الروح العسكرية، وأيضا الصفوف المتلاحمة في الصلاة إن هذا المنظر لم يغب معناه عن ذهن أحد قادة دوريات الاستطلاع في جيش الفرس قبل معركة القادسية حين رأي الجنـــود متراصين فـــي صفوف لصـــلاة الفجـــر حيـــث قـــال لقائده انظر إلى جيش المسلمين إنهم يؤدون تدريباتهم العسكرية اليومية لقد ورد ذلك في كتاب أحد مفكريهم الغربيين وهو رسلو.
ألا ترون أن خمس صلوات في اليوم مع الوضوء »الغسل« أولها فجراً قبل بزوغ الشمس وأخرها في المساء هي وسيلة فعالة ضد الخمول والاسترخاء، وحتى الوضوء والطهارة إذا أردنا أن نركز على ماديتها فسوف نجد أن ذلك أيضاً ثنائي القطب روح ومادة، حيث أضفي عليها الإسلام شيئا روحيًا وحيث رفعها إلى منزلة الفكرة جاعلاً بينها وبين الصلاة ككل ارتباط عضوي، حيث يقرر القرآن خلافًا لكل الأديان

»المجردة« إن الله يحب المتطهرين وعبارة مثل »النظافة من الإيمان« لا توجد سوى في الإسلام حيث البدن في جميع الأديان الأخرى خارج الاعتبار. أضف إلى ذلك أن الصلاة في الإسلام تزكي أيضاً في جانبها العملي الصفة الاجتماعية، حيث إنها ليست مجرد اجتماع الناس بل هي أيضًا مناسبة للعلاقات الشخصية المباشرة وبهذا تكون الصلاة في مضمونها وجوهرها ضد الفردية والانعزال، فإذا كانت الحياة تفرق الناس فإن المسجد يجمعهم ويمزجهم.

إنها في الحقيقة مدرسة يومية للتآلف والمساواة والوحدة ومشاعر الود ويتوج ذلك صلاة الجمعة تلك الصلاة الحضارية السياسية التي تقام في مسجد كبير في المنطقة ويحضرها عادة رجال الدولة والتي تعد خطبتها جزء أساسي من الصلاة رسالة سياسية وربما يتعارض ذلك مع المفهوم المسيحي الديني ، ولكنه حقيقة يؤكد بها الإسلام توجيهه للحياة الاجتماعية ضمن منظور حضاري وإنساني.

وبالنسبة للزكاة فإنها في الإسلام تعتبر التزاماً قانونياً وفريضة شرعية أي ضريبة يدفعها القادرون أو الأغنياء للفقراء.

إن الزكاة ربما كانت أول ضريبة من نوعها في التاريخ. إن منطق الزكاة الملزمة لم توجد من دين مجرد غير الإسلام وبإعلانها اتخذ الإسلام وضعيته الاجتماعية كحركة، وقد ذكرت في القرآن في مواضع تبلغ ثلاثين مرة.

إن فرض الزكاة لم يكن في حقيقته لمعالجة الفقر فقط، فالفقر ليس قضية اجتماعية بحتة وسببه ليس في العون فقط وإنما أيضاً في الشر الذي تنطوي عليه نفوس البشر، حيث إن الحرمان هو الجانب الخارجي للفقر وأما جانبه الباطني فهو الإثم والجشع وإلا فكيف نفسر وجود الفقر في المجتمعات الغنية؟ إننا في نهايات القرن العشرين ولا يزال أكثر من ثلث البشرية تعاني من نقص مزمن في التغذية، هل ذلك يرجع إلى نقص في الغذاء؟ أم إلى نقص في الشعور الإنساني! وعلاج الفقر لابد أن يتضمن حلا إنسانيًا ولذلك عالجه الإسلام بهذه العظمة والروعة وليس بمجرد تغيير ملكية الناس لأنه طالما بقيت في النفوس الكراهية والاستغلال والاستعباد فلن يمكن علاجه أو إنجاز علاجه بشكل صحيح كما في النظريات السياسية التي ظهرت في العالم أو الصدقات التطوعية في المسيحية.

وهذا هو السبب في إخفاق الثورات الدينية المسيحية والثورات الاشتراكية جميعها بنظرياتها السياسية الحمقاء. فعلى مدي ألفي سنة لم يتناقص حجم الشر في العالم ولم تستطع إمبراطورية مقدسة أو إمبراطورية ثورية الوصول إلى غاياتها المأمولة كما قال البيركامو، حيث كانت الثورات الدينية دينية أكثر مما يجب، وكانت الثورات الاجتماعية اجتماعية أكثر مما يجب، حيث توهم الدين أنه سيكون أكثر سيطرة برفضه للسياسة والعنف وأخذت الثورات الاشتراكية طريقها عبر العنف كواجب أساسي لها واعتبرت الصدقة مجرد خدعة.

وبذلك ثبت أن الإنسان في حاجة إلى دين هو في الوقت نفسه سياسة وسياسة هي في الوقت نفسه أخلاق، إنه يحتاج إلى مفهوم للصدقة يمكن أن تتحول إلى التزام اجتماعي أو ضريبة وتلك هي الزكاة في الإسلام، حيث إن الزكاة كما تحتاج إلى صناديق لتجمع فيها تحتاج أيضًا إلى قلوب مفتوحة بالرحمة عبر الإيمان، إن الزكاة نهر كبير من السلع تفيض من قلب إلى قلب.. من إنسان إلى إنسان إنها تقضي على الفقر بين المحتاجين وتقضي في نفس الوقت على اللامبالاة والتجاهل بين الناس وتقربهم من بعضهم البعض. وغاية الإسلام هنا ليست القضاء على الأغنياء، بل القضاء على الفقر... وما هو الفقر؟... إنه نقص الأشياء الضرورية التي لا يمكن الاستغناء عنها للحياة العادية، وبمعنى آخر أن يمتلك الإنسان أقل من الحد الأدنى اللازم لإقامة الحياة، أي يكون الإنسان تحت مستوي الحد الأدنى للمعيشة وهي مقولة طبيعية وتاريخية، حيث تمثل مجموع السلع اللازمة للإنسان وأسرته بما يسد احتياجاتهم المادية والاجتماعية، وليس من الممكن أن يقلص المجتمع جميع الناس إلى مستوي واحد ولكن أن يوفر لكل إنسان الحد الأدنى من مستوي المعيشة المشار إليه.

وبذلك فإن الأهداف الاجتماعية للإسلام مقصورة على القضاء على الفقر وليست تسوية الملكيات بين جميع الناس. وهذا التحليل للصلاة والزكاة وهما أبرز الممارسات الإسلامية يدلان على ثنائية ذاتية داخلية، ولكن إذا نظرنا إليهما من الخارج لوجدنا لهما وظائف مختلفة واضحة في إطار البنية الإسلامية ومن هذا المنظور نري الصلاة عنصراً روحياً والزكاة عنصراً اجتماعياً، الصلاة موجهة للإنسان والزكاة موجهة للعالم.

الصلاة أداة تنشئة وتربية والزكاة جزء من النظام الاجتماعي ويكاد المفكرون المسلمون يتفقون على أن هناك تعزيزًا متبادلاً بين الصلاة كعبادة شخصية والزكاة كموقف اجتماعي يتسق تمامًا مع الصلاة، ولذلك فإن الصلاة دون الزكاة باطلة، والإسلام يقاتل من أجلها. والصوم في الإسلام يعتبر مظهراص لروح الجماعة وهو ليس مجرد التزام إيماني شخصي أمام الله تعالى فقط وإنما هو بالإضافة لذلك التزام اجتماعي، وهذا الأمر غير مفهوم عند الأديان الأخرى، حيث أن الصيام في الإسلام يعتبر وحدة تجمع بين التنسك والسعادة وحتى المتعة في حالات معينة، وهو بالتالى أكثر الوسائل التعليمية طبيعة وقوة خلال الممارسة الإنسانية إلى يومنا هذا.

فهو يمارس في قصور الملوك وفي أكواخ الفلاحين على السواء في بيت المفكر والفيلسوف وفي بيت العامل، وأعظم ميزاته أنه يمارس ممارسة حقيقية. ولنأت إلى الحج وهو العامود الخامس من أعمدة الإسلام ثم نتساءل هل هو شعيرة دينية؟ أم هو معرض تجاري أم تجمع سياسي؟ أم أنه كل هذا في شيء واحد؟ ومن المؤكد أنه شعيرة دينية ولكنه في صيغته الإسلامية كل في واحد.

وعلى ذلك فإن الثنائية المتوحدة التي يتميز بها الإسلام واضحة في أسسه وجوهره وفي أمور أخرى كثيرة ولننظر معًا إلى هذه الآية في القرآن الكريم: {لاَيُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَـكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ} (المائدة: 89).

وفيها نرى أن الأعمال الاجتماعية المفيدة كإطعام المساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة وهي خارجية بطبيعتها لها أولوية على الأعمال الروحية الخالصة، حيث إن هذه الأعمال تطبق فقط كبديل عندما تستحيل أداء الأولى ثم يأتي الصيام في هذه الآية بمثابة ندم، ودعاء بطلب المغفرة.

وبعد لحظات من الصمت سببها انتظار الجالسين للمزيد من الحديث قال السيد هاميلتون: في الحقيقة أنا منبهر تماماً بطروحاتكم التفسيرية للإسلام وبطريقة يقبلها العقل الإنساني، لكن الحضارة الغربية لم تبدأ شرارتها إلا بعد تنحية الدين في أوروبا وتحديدًا بعد فترة الإصلاح وبداية عصر النهضة، ومن ثم الانطلاق نحو البناء الحقيقي للحضارة القائمة الآن، ألا تري ذلك وتتفق معي فيه.
كان الحديث قد أشاع الدفء في المكان وكان الجميع منتعشين وكنت أشعر بندي العرق على جبهتي وبحباته في جسدي فابتسمت وقلت لهاميلتون: إن قيام الحضارة التي تعيشها البشرية الآن في أوروبا ليس دليلاً على نضوب الإسلام أو مجافاته للحضارة فأنت تعلم أولاً وقبل أن أسترسل في توضيح مكامن الحضارة وتأصلها في صلب العقيدة الإسلامية أود أن تعلم، وربما أنت كذلك بالفعل، أن المسلمين كانوا رواد الحضارة التي نعيشها في العالم الآن وتنتسب إليكم، وذلك من خلال علماء المسلمين وفلاسفتهم التي كانت علومهم أساس الانطلاق لهذه الحضارة ولعلك لا تنسى ابن رشد وابن طفيل ودورهم الكبير في نهوض أوروبا ثم علماء الفلك والبصريات والرياضة والطب كابن الهيثم والفارابي وابن سينا وابن أحمد.
ودعني يا سيد هاميلتون أوضح لكم هنا أن الإسلام هو دين البناء الحضاري الراقي للإنسان ولا تنس أننا أوضحنا بجلاء كما تفضلت أن الإسلام ليس دينا مجردًا، بل هو الوحدة ثنائية القطب لكنني الآن سوف أوضح لكم بالتفصيل موقف الإسلام ومكانه من صنع الحضارة، لكن ليس فقط حضارة بل حضارة إنسانية تعطي الإنسان من داخله الدفق الإنساني الذي يجعله يسيطر على الجانب المادي للحضارة ليجعله في خدمة الإسلام ، بل لنقل إيجاد التوازن الحضاري بين جانبيها الروحي والمادي. فالقرآن لا يحتوي على حقائق علمية جاهزة، ولكنه يتضمن موقفًا علميا جوهريًا مثلاً الاهتمام بالعالم الخارجي وهو أمر غير مألوف في الأديان، حيث يشير القرآن إلى حقائق كثيرة في الطبيعة ويدعو الإنسان للاستجابة لها كالأمر بالعلم «القراءة» الذي لا يتعارض مع الألوهية بل إنه صدر باسم الله: {اقْرَأْ بِّاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2)} (العلق: 1، 2) بمقتضي هذا الأمر يلاحظ ولا يفهم طبيعة خلقت نفسها كما قال بذلك علماء المادية والإلحاد ولكن ملاحظة وفهم ذلك الكون الذي أبدعه الله ولذلك فإن الملاحظة ليست بلا هدف وبلا مبالاة أو خالية من التشوق للمعرفة وإنما هي مزيج من العلم وحب الاستطلاع والإعجاب الديني وتعال معي لأريك أوصافها وتصويرها في القرآن.
بسم الله الرحمن الرحيم {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} (البقرة : 164).
{ إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (95) فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (96) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (97) وَهُوَ الَّذِيَ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (98) وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} (الأنعام: 95، 99).
{هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (10) يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (11) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (12) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (13) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } (النحل : 10 ، 14).
{وَاللهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (65) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً سَآئِغاً لِلشَّارِبِينَ (66) وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (67) وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68) ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (69)} (النحل : 65 ، 69) .
{وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ } (الأنبياء : 33) .
{ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ (45) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (46) } (الحج : 45 ، 46) .
{أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (7) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (8)} (الشعراء 7 ، 8)
قال هاميلتون متسائلا : أكل هذا يوجد في القرآن؟ أشرت له قائلا وإليك المزيد .
{أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (9)} (الروم : 9) .
{ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (6) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (7) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (8) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكاً فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (9) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (10) رِزْقاً لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ } (ق : 6 - 11).
{ أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ} (الغاشية : 17 -20).

{أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذِي تَشْرَبُونَ (68) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (69) لَوْ نَشَاء جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (70) أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (71) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِؤُونَ (72) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ (73) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ }
(الواقعة: 63 - 74).
كل هذه الآيات التي اتجهت بكليتها للطبيعة نجد فيها تقبلا كاملا للعالم وتساؤلا يثير العقل ليتأمل ويتعلم ويتطور خذ مثلا هذه الآيات التي توقظ الفضول الفكري وترفد العقل الباحث المكتشف بقوة دافعة.
{أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ} (الأنبياء 30).
{وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاء وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (4)} (الرعد : 4).
إن هذه الآية الأخيرة يا سيد هاميلتون تستفز الفكر وتوقظ ملكة الفضول البحثي لدي الإنسان حيث تطرح مشكلة تكمن في أعماق الكيمياء والنتيجة أن المسلمين هم الذين وضعوا نهاية الجدل الذي ثار حول قضايا جوهرية استحوذت على المسيحية حين اتجهوا للكيمياء واعتقد أنك تتفق معي الآن في التحول من الفلسفة الدينية إلى العلم المرتبط بالدين وكل الآيات التي اقتبستها لكم من القرآن لعلكم تتفقون معي في أنها دعوة للملاحظة وهي أمر بدات به قدرة الإنسان على العالم والطبيعة.
ولعلنا نتفق أيضا أن أساس القوة الغربية لا تكمن في أسلحتها واقتصادها فهذه الأمور هي المظهر الخارجي فقط وإنما يكمن سر قوتها في الملاحظة والمنهج التجريبي في التفكير الذي ورثته الحضارة الغربية عن بيكون الذي استمد المنهج التجريبي من المسلمين .
ثم تساءلت متوجها إلى الآخرين : أليس كذلك؟ قال هاميلتون وإيفون : نعم.. نعم.. تماما.. فيما أومأ الآخرون برؤوسهم. لكن إيفون قالت بحماس : لقد جعلتنا مصابين بما يشبه الصدمة كما جعلتنا نشعر بقصور في وعينا وأثرت فينا ربما مراجعة النفس والقلق.
لكن السيد هاميلتون قال : إن الأمر لم ينته وتبقى أمور أخرى أفضل أن نؤجلها للغد حيث ليلتنا الأخيرة هنا.
ومن حسن الحظ أن الجمع هذا لن ينقص أحدًا منا فجميعنا هنا في الغد. ونهض الجميع فيما ودعتهم وهم متوجهون إلى غرفهم لنيل قسط من الراحة وجلست أنا مع بيتر الذي قال لي: شكرا لأنك لم تخذلني.
فضحكت وقلت له : ألا زلت في وعيك؟ فنظر لي من طرف عينيه وقال مبتسما: إن حديثك جعلني أنسي قدحي الليلة وربما عوضت ذلك في الغد. فحييته وصعدت الدرج إلى غرفتي وأنا أشعر بنشوة وسعادة ذلك أنني استطعت أن أفضفض ما بصدري.
وشعرت براحة كبيرة وأنا أتجه إلى الفراش بجوار ابني الأكبر الذي ترك أمه مع إخوته في غرفتهم وتدثر في فراشي.
* * *
أيقظني الأولاد بضجيجهم صباحاً قبل الثامنة وأنا أشعر أني مازلت بحاجة للراحة حيث كان النعاس يغالب جفوني ولم تتركني الصغيرة لأواصل النوم فقد قفزت إلى جواري وطوقتني بذراعيها فيما سحبت زوجتي الغطاء وهي تقرعني على عودتي المتأخرة.
نهضت من الفراش متثاقلاً ودلفت إلى الحمام حيث ألقيت بجسدي تحت الماء الفاتر وما لبثت أن حولت صنبور المياه إلى أقصي درجة البرودة خرجت بعدها وأنا أشعر بحيوية ونشاط وكان الأولاد برفقة أمهم قد سبقوني إلى قاعة الطعام لتناول الفطور حيث لحقت بهم بعد الصلاة وهناك وجدت الجميع من الأصدقاء الذين جمعتني بهم جلسة الأمس حيث ابتسموا جميعاً وهم يردون تحية الصباح التي ألقيتها عليهم.
وبعد تناول القهوة أمام مدخل النزل اصطحبت أسرتي عبر الشارع المؤدي إلى ميناء البحيرة حيث استأجرنا أحد القوارب ذات المحرك وبصحبتنا إحدى الفتيات العاملات لدي شركة القوارب للتنزه بها حول البحيرة فقد كان الطقس رائعا وتوجهنا جميعاً إلى قرية أمبلساید حيث تجولنا فيها ولم تنس زوجتي شراء بعض الأشياء من محلاتها وبعض اللعب للصغار وكان الصغار سعداء بالجولة البحرية وأخذت الأم تلتقط بعض الصور بكاميراتها التي تحملها في حقيبتها اليدوية .
كنت خلال تلك الجولة التي استغرقت ما يقارب من خمس ساعات أسترجع حديث الأمس وأتأمل القاسم الإنساني المشترك الذي يجمعنى بهؤلاء الناس الذين قضيت معهم سهرتي بالأمس في نقاش ربما أكون قد وفقت في الأمر الذي أشعرني بالراحة والمعنويات العالية.
وبعد الثالثة بقليل كنا نقطع الشارع باتجاه النزل وهناك تحت المظلات وحول الطاولات المنتشرة أمام المدخل بحديقة النزل كان السيد هاميلتون وزوجته إيفون والسيد ويليامز وزوجته جالسين وكانوا يتبادلون حديثاً مع رجل أسود وزوجته على طاولة أخرى جوارهم وهم يتضاحكون ولم تكن كيت وصديقها ضمن المجموعة وحين ظهرت مع أسرتي توجهت أنظارهم نحوي مبتسمين وقد توقفوا عن الحديث ألقيت عليهم بالتحية وأنا أتوجه نحوهم فيما اصطحبت زوجتي الأبناء إلى غرفتهم .
كان الرجل الأسود يبدو في الأربعينات من عمره ويتحدث الإنجليزية بطلاقة رغم أنه من إحدى البلاد الأفريقية الناطقة بالفرنسية وبعد قليل من انضمامي إلى المجموعة قدمني إليه السيد ويليامز.
كان السيد أوزنجا أحد المسئولين السياسيين في بلاده وبسبب المشاكل السياسية والحروب الأهلية فيها لجأ إلى أوروبا هربا من القتل والدمار الذي لحق ببلاده.
وبعد قدح من القهوة اعتذرت لهم وتوجهت إلى غرفتي حيث وجدت الأبناء وزوجتي يستعدون للعودة مرة أخرى إلى خارج النزل للعب وتناول بعض الشطائر الخفيفة، أما أنا فقد أديت صلاة الظهر والعصر قصراً وجمعاً وشعرت بحاجتي لغفوة إضافية أعوض بها سهرة الأمس واستعد بها لسهرة الليلة .

وفي الخامسة والنصف عاد الأولاد بصحبة أمهم وكنت قد حصلت على قسط وافر من الراحة، وبعد عدة مكالمات هاتفية مع بعض الأصدقاء والأقارب في لندن استمتعنا بمشاهدة التليفزيون حتىالسابعة والنصف، ثم توجهنا لتناول طعام العشاء، وبعد ذلك وفي تمام التاسعة والنصف كنت أجلس على إحدى المقاعد الوثيرة داخل النزل بالبهو وكان المطر يتساقط رذاذاً وبدأ الأصدقاء يتوافدون وبينهم ذلك الرجل الأفريقي السيد أوزنجا مع زوجته ولم تتخلف سوى الآنسة كيت وصديقها.
وبادرتني السيدة إيفون بعفويتها وتلقائيتها قائلة: إنها ليلتنا الأخيرة هنا وسوف نضم إلينا السيد أوزنجا وزوجته لإثراء الحوار الليلة.
ولم تكد تكمل جملتها حتى بادرني السيد أوزنجا قائلا: لقد أعطاني الأصدقاء فكرة عن حواركم الممتع الليلة الماضية ويسعدني أن أشارككم الحديث الليلة وبرفقتي زوجتي كريستينا وباعتباركم مفكراً أو مثقفاً إسلامياً فإنني سأشير إلى قضيتي الخاصة وهي استرقاق الأفارقة لديكم في الإسلام حيث يحفل تاريخكم باختطاف السود واسترقاقهم وبيعهم في سوق النخاسة كما تسمونه.

ابتسمت وأنا أنظر إليه بتركيز ثم قلت له أولا : على الرحب والسعة وسأفعل ما بوسعي لكي أوضح لك ولكم جميعاً موقف الإسلام من الرق بل قضية الرق بجوانبها العامة وموقف حتى أوروبا والغرب من ذلك عبر التاريخ. كما نعلم جميعا كان الرق في اليونان القديمة نظاماً طبيعياً معمولاً به ووافق عليه وأقره جميع فلاسفتهم حتىإن أفلاطون اعتبره إحدى الضرورات الحياتية التي لا يمكن الاستغناء عنها، وليت الأمر هكذا فقط بل وصل في قسوته إلى النظام الذي أصطنعه لعقاب العبيد في جمهوريته الفاضلة التي كان يحلم بها.
وكان من رأيه أن الرحمة إذا وجبت بالأرقاء فليس لأنهم آدميون يستحقون الرحمة بل من حيث كونهم فقراء أخساء لا يليق بالأحرار أن يلوثوا أيديهم بعقابهم وإيذائهم! وكل الحضارات القديمة شاركت في هذه الجريمة خذ مثلا القانون الروماني الذي لا يزال يستخدم في أوروبا حتى اليوم كان ينظر إلى الرق نظرة طبيعية كما كان يجيز للدائن أن يسترق مدينه ويبيعه إذا عجز عن الوفاء بالدين، وكان الرومان حين يفتحون بلدا يستبيحون سكانه رقيقا ويعتبرونهم ملكا للفاتح المنتصر يتصرف فيهم كيف يشاء فله أن يقتلهم ومن حقه بيعهم أو استعبادهم .
وفي الحضارة الفارسية كان الأمر على نفس الشاكلة وكان القانون في الهند يقسم الناس إلى طبقات أربع أعلاها البراهمة وأدناها الشودر أو المنبوذون.
وعند اليهود حيث عرفوا بأنهم يرون كل البشر غير اليهود عبيداً وخدماً لهم، وكانوا يسترقون جميع النساء والأطفال في البلد الذي يهزمونه.
وفي نفس الوقت يضربون رقاب الرجال بحد السيف ويبيدونهم جميعا كما أمرتهم كتبهم التي يقدسونها. ففي سفر التكوين يقول : «إن حام بن نوح وهو ابن كنعان كان قد أغضب أباه لأن نوحا شرب حتى سكر يوما فنام وتعري وهو نائم فرآه حام وهو عار فلما علم نوح بعد أن استيقظ بذلك غضب ولعن نسله الذين هم من كنعان أي العرب والفلسطينيين.
وقال : ملعون كنعان عبد العبيد يكون لإخوته وليكن كنعان عبداً لهم» وبذلك تأكد الرق والاعتراف به في كتبهم التي يرون قداستها. ورغم أن المسيح قد جاء ليكمل الناموس أي الشريعة اليهودية ولم يجئ لنقضها فقد أقرت المسيحية الرق الذي أقره اليهود من قبل ولم يرد في الإنجيل أي نص يحرمه أو حتى يستنكره.
بل إن بولس الرسول قال في رسالته إلى أهل أفسوس في الإصحاح السادس: «أيها العبيد أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعده في بساطة قلوبكم كما للمسيح لا يخدمه العين كمن يرضي الناس بل كعبيد للمسيح».
كذلك فعل القديس بطرس ثم جاء توما الأكويني الذي مزج رأي الدين بالفلسفة فلم يعترض على الرق بل زكاه لأنه حالة ضرورية. وأكثر من ذلك نصح القديس أزيدوروس الأرقاء ألا يطلبوا الحرية حتى لو أمرهم أسيادهم بذلك، لأن البقاء في العبودية يخفف عن العبد في الحساب يوم القيامة، وأن المساواة التي تعنيها المسيحية ليست هنا في الأرض بل في مملكة المسيح السماوية. وفي معجم لاروس الفرنسي الذي كتبه أساتذة مسيحيون يقولون بالنص: »لا يعجب الإنسان من بقاء الرق واستمراره بين المسيحيين إلى اليوم فإن رجال الدين المسيحي يقرون بصحته ويسلمون بمشروعيته ولم يثبت مطلقا أنهم استنكروه أو طالبوا بإلغائه«.
وعندما جاء الإسلام كان الرق كما يقول الفيلسوف الألماني جوته حكمة في رأي بعض الفلاسفة وضرورة كما يزعم الطغاة الجبابرة وقدرا كما كان يقول المتحدثون باسم الدين وكانت هناك عدة مصادر للاسترقاق اصطدم الإسلام بوجودها.
أولا : الحروب حيث كان الأسري في أي حرب أهلية أو خارجية يسترقون ويستعبدون.
ثانيا : القرصنة أو الخطف وكان ضحايا هذه العمليات الهمجية يسترقون ويستعبدون.
ثالثا : مرتكبي الجرائم كالزنا والقتل والسرقة حيث كان يحكم على مرتكبي هذه الجرائم بالرق إما لمصلحة الدولة أو لمصلحة المجني عليه.
رابعا : عجز المدين عن دفع دينه حيث كان يحكم عليه بالرق لصالح الدائن وقد كان هذا الاسترقاق معمولا به في الحبشة مع المسلمين فقط حتى كانوا يسترقون لصالح المسيحيين.
خامسا: سلطة الوالد على أولاده حيث كان يباح له أن يبيعهم في حالة الفقر وكذلك بيع الزوجات وكان هذا الأمر معمولا به حتى عهد قريب في أوروبا فقد حاول رجل إنجليزي بيع زوجته سنة 1931 وحين رفع الأمر إلى المحكمة رفضت البيع. قالت إن هذا القانون أبطل.
سادسا : بيع الرجل نفسه لقاء أجر معين لرجل آخر.
سابعا : تناسل الأرقاء حيث كان ولد الأمة يولد رقيقا حتى لو كان أبوه حرا وكان هذا النوع مصدرا كبيرا للرقيق في هذا العصر. فماذا فعل الإسلام وكيف تصرف؟ كان أول ما فعله الإسلام أن أبطل وألغي خمسة أنواع من الرق وتريث بالنسبة لنوعين فقط من أنواعه هما رق الحرب ورق الوراثة.

لقد تريث الإسلام بالنسبة لهذين النوعين جريا على عادته في علاج الأمور بالحكمة والتدريج خطوة خطوة كما فعل في تحريم الخمر. ثم فرض بعد ذلك على هذين النوعين من الرق كثيرا من القيود التي تقضي عليهما في نهاية الأمر .

فبالنسبة لرق الوراثة قرر الإسلام أن الأم التي تلد ولداً من سيدها يصبح هذا الولد حراً على الفور متي اعترف به السيد. وبالنسبة لرق الحر فقد قرر الإسلام أن أسري الحرب بين طائفتين مسلمتين لا يسترقون ابدا فلا يجوز لمسلم أن يسترق مسلما.

أما بالنسبة للأسري من غير المسلمين فقد قرر الإسلام أنه لا يصح استرقاق هؤلاء إلا بشروط أهمها أن تكون هذه الحرب حرباً شرعية أي يجيزها الإسلام فإذا كانت هذه الحرب مما لا يجيزه الإسلام فلا استرقاق لأحد من الأسرى، وحتى لو كانت هذه الحرب مما يجيزها الإسلام وكان الطرف الآخر هو المعتدي فإن الاسترقاق ليس شيئا حتميا بل يجوز للإمام أن يطلق سراح الأسير بدون فدية أو بفدية أو نظير عمل يقوم به كالمبادلة مع أسرى المسلمين عند العدو.

ومن عظمة القـرآن أنه لم يتعـرض لكلمــة الاستـرقاق أبدا قال تعالى {فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الوَثَاقَ فَإِمَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً} (محمد: 4).

وبذلك يتضح ما فعله الإسلام حيال مصادر الرق لقد قضي عليها ما عدا اثنين لحكمة يعلمها الخالق المشرع ثم قيد هذين النوعين بقيود تقضي عليهما في النهاية... ولكن ليس هذا فقط هو كل ما فعله الاسلام؟

بالطبع وبكل ثقة ليس هذا فقط.. حيث فتح الإسلام أمام الرقيق أبواب الحرية وأتاح لهم فرصاً كثيرة فمثلا إذا قال السيد لعبده أنت حر ولو على سبيل المزاح فإن العبد يصبح حراً حتى لو كان السيد فاقداً لرشده مثل آخر إذا جرى على لسان السيد كلمة تدبير أي الوصية بتحرير العبد بعد موت سيده فإن هذا العبد يصبح حرا بعد موت سيده حتى ولو كان السيد مازحاً أو لاهياً.

ومن أسباب العتق أيضا أن يأتي السيد من جاريته بولد يعترف ببنوته فإن هذا الولد يعتبر حرا من يوم ولادته كما تصبح أمه حرة بمجرد وفاة سيدها .

ومن أسباب العتق أيضا في الإسلام المكاتبة بأن يتفق السيد مع عبده على مبلغ يسدده له بعدها يصبح هذا العبد حرا.

ولتأكيد أن الإسلام شرع العتق ولم يشرع الرق فإن جزءا من ميزانية الدولة خصص لمساعدة الأرقاء في تحرير أنفسهم : {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا والْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } (التوبة :60) .

ولكن دعوني أيضا أقول لكم ولك على وجه الخصوص يا سيد أوزنجا أنه رغم كل ذلك لم يكتف الإسلام بذلك حيث عمد الإسلام إلى طائفة كبيرة من الجرائم والأخطاء وجعل كفارتها تحرير الأرقاء كما يلي:

أولا : كفارة القتل الخطأ :

قال تعالى {$مّا كَانَ لِمُؤمِنٌ أَن يّقَتِلَ مِؤمِنًا إلاَّ خَطّئًا $ومّن قّتّلَ مِؤمِنًا خّطّئًا فّتّحّرِيرُ رّقّبّةُ مّؤمِنّةُ $ودِيّةِ مّسِلَّمّةِ إلّى» أّهًلِهِ إلاَّ أَن يّصَّدَّقِوا فّإن كَانَ مِن قّوًمُ عّدِوُ لَّكِمً $وهِوّ مِؤمِنِ فّتّحّرِيرِ رّقّبّةُ مّؤمِنّةُ $وإن كَانَ مِن قّوًمُ بّيًنّكِمً $وبّيًنّهِم مِّيثّاقِ فّدِيّةِ مّسِلَّمّةِ إلّى» أّهًلِهِ $وتّحّرِيرِ رّقّبّةُ مّؤمِنّةُ فّمّن لَّمً يّجِدً فّصِيّامِ شّهًرّيًنِ مِتّتّابِعّيًنِ تّوًبّةْ مِّنّ بِلَّهِ $وكّانَ بِلَّهِ عّلِيمًا حّكِيمًا <29> } (النساء : 92) .

ثانيا: كفارة الحنث باليمين :

قال تعالى: {لا يِؤّاخِذِكِمِ بِلَّهِ بِاللَّغًوِ فِي أّيًمّانِكِمً $ولّكِن يِؤّاخِذِكِم بِمّا عّقَّدتمِ الأّيًمّانّ فّكَفَّارّتِهِ إطًعّامِ عّشًرّةِ مّسّاكِينّ مِنً أّوًسّطِ مّا تِطًعِمِونّ أّهًلِيكِمً أّوً كِسًوّتِهِمً أّوً تّحًرِيرِ رّقّبّةُ فّمّن لَّمً يّجِدً فّصِيّامِ ثّلاثّةُ أّيَّامُ ذّلِكّ كّفَّارّةِ أّيًمّانِكِمً إذّا حّلَفًتِمً $واحًفّظِوا أّيًمّانّكِمً كّذّلِكّ يِبّيٍنِ بِلَّهِ لّكِمً آيّاتِهِ لّعَّلَّكِمً تّشًكِرِونّ <98>} (المائدة: 89)

ثالثا : كفارة الظهار :

وهو قول الرجل لزوجته أنت على كظهر أمي أي تحرم عليه كما حرمت عليه أمه حتى يكفر عن يمينه هذا كما جاء بالآية الكريمة {$الَّذِينّ يِظّاهِرِونّ مِن نِّسّائِهِمً ثِمَّ يّعِودِونّ لِّمّا قّالِوا فّتّحّرِيرِ رّقّبّةُ مِّن قّبًلِ أّن يّتّمّاسَّا ذّلِكِمً تِوعّظِونّ بِهِ $واللَّهِ بِمّا تّعًمّلِونّ خّبِيرِ (3)} (المجادلة : 3) .

وقد سن الإسلام من الشرائع والقوانين لحماية الأرقاء ومعاملتهم أحسن معاملة في حالة عدم تحريرهم وبما يكفل لهؤلاء الأرقاء حياة أكرم وأحسن من حياة كثيرين ممن يسمون بالأحرار في عصرنا هذا، حتى ان كثيرا من الرقيق لربما يفضلون حياة الرق في ظلال مبادئ الاسلام على الحرية الوهمية في بلاد وأمم تسترق شعوبها بالجملة.

قال السيد أوزنجا : إنني مندهش تماماً يا سيدي لدرجة عدم التصديق ثم استدرك... عفوا إن ما تقوله لأمر عظيم وخاصة طروحاتك التاريخية للرقيق وموقف الأديان منه .

فقلت له : على رسلك يا سيد أوزنجا أنا لم أنته من كلامي ودعني أعرض لكم جميعاً موقف أوروبا المتحضرة وما فعلته بالنسبة للرقيق.

عندما اتصلت أوروبا بأفريقيا تسبب هذا الاتصال بمأساة إنسانية رهيبة عاش بعدها الأفارقة في ليل دامس استمر خمسمائة عام وشارك في هذه المأساة كل شعوب أوروبا خاصة الأسبان والبرتغال والإنجليز .

لقد كانوا يشعلون النار في أكواخ الأفارقة في سواحل أفريقيا وعند هروبهم من النار كانوا يصطادونهم كالحيوانات وكانت أعداد كبيرة تموت منهم خلال عملية اصطيادهم، ويموت ثلثهم تقريبا أثناء الرحلة من أثر الشمس .

أما الذين كانوا يصلون فقد كانوا يموتون بالجملة فمثلا كما تورد المصادر دخل مستعمرة جامايكا سنة 1820 حو إلى 800000 ثمانمائة ألف مات منهم نصف المليون خلال سنة واحدة .
وبريطانيا هذه التي نجلس على أرضها الآن اختطفت حوإلى ثلاثة ملايين أسود من شواطئ أفريقيا وكانت موانئ التجميع لهذا الرقيق قبل تصديره إلى أمريكا هي ليفربول ولندن وبرستول ولانكشاير وكانت الملكة اليزابيث الأولى تشارك في هذه العملية كشريك تجاري لجون هوكنز أكبر تاجر رقيق في العالم وقد أنعمت عليه بلقب سير وجعلت شعاره رقيقا يرفل في القيود والسلاسل، ومن المضحك والمبكي معاً أن السفينة التي أعارتها الملكة لجون هوكنز اسمها يسوع.
وقد طلبت الحكومة الإنجليزية من رجال الدين المسيحي الفتاوى التي تبيح لهذه الحكومة استرقاق البشر، فلم يقصر رجال الدين وقاموا بالمطلوب وكتبوا لها ما جاء في أسفار العهدين القديم والجديد من إباحة استعباد البشر .
ومن العجيب أن الكنيسة لم تكتف بإصدار الفتاوى التي تبيح استرقاق الأفريقي بل كانت ترسل القساوسة والكهان إلى موانئ الشحن والتصدير ليباركوا هؤلاء المساكين ويخلصوا أرواحهم الشريرة من التفكير في العودة إلى بلادهم التي اختطفوا منها حتى لا يحرموا من ملكوت المسيح وكانوا في مقابل ذلك يتقاضون مبلغاً معيناً من المال لقاء كل رأس تساق إلى مخازن التصدير.
وفي الحضارة الأوروبية لم يكن للرقيق أي حقوق بل بالعكس فقد صدر قانون يقول : »من اعتدي من الرقيق - أقل اعتداء على أحد السادة يقتل، وإذا أبق العبد أي هرب قطعت أذناه ورجلاه وكوي بالحديد المحمي بالنار، وإذا هرب للمرة الثانية قتل... أما السيد فإنه لا يعاقب ولو قتل ألف زنجي«.
كان الجميع ينصتون في ذهول وكان السيد أوزنجا يمسك بمنديله ليجفف قطرات العرق على جبهته رغم اعتدال الطقس وميله للبرودة قليلاً فيما كانت زوجته تبتسم ابتسامة بائسة.
ولم أتوقف عن الحديث بل استطردت قائلا : هل تذكرون المسلسل التليفزيوني جذور ومؤلفه إليكس هيلي؟ هل تذكرون بالتحديد قصة كينتا كونتي؟ هل تريدون أن أعيدها على مسامعكم ؟ قال أوزنجا وهو يهز رأسه : لا داعي. وقالت زوجته كريستينا : هذا يكفي يا سيدي.
وقال هاميلتون وهو يمط شفتيه : إن لكل وقت ظروفه ولكل عصر خصائصه الإنسانية والسياسية . وقالت السيدة إيفون : إنني اتفق معك في كل ما ذكرت ولقد أثريتنا بحديثك الممتع أيها العربي لكننا نعلم أن القرآن وهو كتابكم المقدس قسم الناس إلى طبقات تتفاوت فيما بينها وتختلف باختلاف الجنس والمعيشة والرزق. قلت وأنا اعتدل في جلستي: تلك هي مشكلتكم يا سيدة إيفون وهي أنكم تفهمون الأمر كما تريدون أنتم وليس بمفهـــومه الصحيح كما أنزل، وربما تقصدين الآية الكريمة : { أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ <23> } (الزخرف : 32)
وقبل أن أتعرض لتفصيل وتفسير معنى هذه الآية دعيني أولا أعرض لك نماذج من المساواة في الإسلام عبر أحداث وقعت سجلها التاريخ ثم أعرج بعد ذلك على توضيح الحقيقة لك .
ينظر الإسلام إلى الإنسانية كحديقة كبيرة مختلفة الألوان في أزهارها وثمارها دون أن يكون للون أو طعم فضل على لون أو طعم آخر، واستمعي إلى قول محمد [: «أنا سابق العرب وصهيب الرومي سابق الروم وسلمان سابق الفرس وبلال سابق الحبش». ويقول النبي [أيضا، «لينتهين قوم يفخرون بآبائهم أو ليكونن عند الله أهون على الله تعالى من الجعلان» أي الدويبة السوداء التي تكون في الأماكن الرطبة .
بل نقرأ : إن أبا سفيان مر على سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي فقالوا: والله ما أخذت سيوف الله من عدو الله.
وسمع ذلك أبو بكر وأخبر النبي [بما سمع وبما قال : فقال النبي لأبي بكر : يا أبا بكر لعلك أغضبتهم ؟ إن كنت أغضبتهم فقد أغضبت ربك فأتاهم أبو بكر وقال: يا أخوتاه أأغضبتكم؟ فقالوا : ما أغضبتنا يغفر الله لك.
وكان عمر بن الخطاب يقول وهو أمير المؤمنين : »أبو بكر سيدنا واعتق سيدنا« يقصد بلال الحبشي العبد السابق قبل الإسلام وقد تزوج بلال الحبشي وهو العبد السابق أخت عبد الرحمن ابن عوف السيد القرشي والتاجر الكبير.
وقد آخي النبي [بين بلال الأسود وبين خالد بن رويحة، كما أخي بين أبي بكر وبين خارجة بن زيد. واعتق الإمام الحسين وهو حفيد الرسول الأعظم وابن إمام المتقين على كرم الله وجهه جارية ثم تزوجها فكتب إليه معاوية بن أبي سفيان يقول له كيف تتزوج جارية؟ فأجابه الإمام الحسين بقوله : لقد رفع الله بالإسلام الخسية ووضع عنابه النقيصة.
ولقد زوج النبي [مولاه وخادمه زيد من ابنة عمته زينب القرشية، وعقد لواء الجيش لأسامة بن زيد وفي الجيش كبار الصحابة، وتعالوا لأحكي لكم عظمة العدل والمساواة في الإسلام عبر هذه الحادثة التي سجلها التاريخ وغيرها كثير... لقد اقتص الإسلام من ملك لأنه ضرب أحد السوقة وحين طلب أمير المؤمنين عمر هذا الملك يسأله إن كان قد ضرب هذا الرجل أم لا، فاعترف الملك بأنه فعل ذلك وقال : إنه تعمد حل إزاري ولو لا حرمة الكعبة لضربت بين عينيه بالسيف.
فقال له عمر بعدما أقر الملك، فإما أن ترضي الرجل وإما أن يقتص منك. فقال الملك وهو جبله بن الأسود : ماذا تصنع بي؟ فقال عمر : آمر بهشم أنفك كما فعلت به . فقال الملك لعمر: وكيف ذلك يا أمير المؤمنين وهو سوقة وأنا ملك؟ فقال عمر : إن الاسلام جمعك وإياه فلست تفضله بشئ إلا بالتقي والعافية.

حاول هاميلتون أن يقاطع فقلت له : صبرا... انتظر... لأفرغ من حديثي ثم استطردت قائلا : وفي موقف آخر أمر أمير المؤمنين عمر بجلد أحد القادة التاريخيين للإسلام وهو أبو موسي الأشعري، حيث كان مع هذا القائد جندي عرف بالشجاعة في قتال العدو فأعطاه أبو موسي بعض حقه من الغنائم فرفض الجندي وأصر على أن يأخذ حقه كاملا، فغضب منه هذا القائد وأمر أبو موسي بجلده عشرين سوطا ثم حلق شعره. فجمع الرجل شعره ثم جاء إلى عمر حتى قدم عليه فأدخل يده وأخرج شعره ثم ضرب به صدر عمر وقال : أما والله لو لا ... فقال عمر : صدق لولا النار.

ثم ذكر الرجل قصته مع قائده أبو موسى وكيف حلق شعره بعد أن ضربه عشرين سوطا لأنه رفض التنازل عن حقه . فقال عمر : لأن يكون الناس كلهم على صرامة هذه أحب إلى من جميع ما أفاء الله به علي.

ثم كتب عمر إلى أبي موسي قائلا : سلام عليكم . أما بعد : فإن فلاناً أخبرني بما كان منك فإن كنت فعلت ذلك في ملأ من الناس . فعزمت عليك لما قعدت له في ملأ من الناس حتى يقتص منك . وإن كنت فعلت ذلك في خلاء من الناس فاقعد له في خلاء من الناس حتى يقتص منك. ثم قدم الرجل على أبي موسي فقال له الناس: أعف عنه. فقال الرجل : لا والله لا أدعه لأحد من الناس. فلما قعد أبو موسي ليقتص منه هذا الجندي رفع رأسه إلى السماء ثم قال : اللهم قد عفوت عنه.

وقد يبدو هذا الأمر مقبولاً إلى حد ما في عصرنا الحاضر وفي بلاد لا يفرق فيها القانون بين صغير وكبير أمام هيئة المحلفين في محكمة لكن حين يقع ذلك منذ أربعة عشر قرناً حين كان الملوك والأمراء يعتبرون الأرض بمن عليها من البشر مُلكاً خاصاً يتصرفون فيهم كيفما يشاءون فهمنا وجه الإعجاز والعدالة في شريعة الإسلام وقانون الإسلام.

وأعود بكم الآن إلى موضوعنا الأول وهو تفسير معنى الآية الكريمة التي تقسم الناس إلى طبقات ودرجات وأرجو لكم أن تنظروا إلى الناس الجالسين هنا وحولنا.. اسألوا كل واحد عن درجته العلمية وعمله وثقافته وعن أجره الذي يتقاضاه أو راتبه الشهري؟ هل يأخذ العامل أجر المهندس؟ وهل يحصل الطبيب على ما يحصل عليه الممرض؟ هل يحصل أستاذ الجامعة على ما يحصل عليه الموظف الإداري فيها؟ وهل يحصل السرجنت »الرقيب« في الجيش على ما يحصل عليه الجنرال أو القائد؟ هل عمل السيد بيتر صاحب هذا النزل كعملي أو أعمالكم؟ وهل دخله المادي يتساوى مع أحد منا أو نتساوى معه؟ إن هذا التفاوت بين كل هؤلاء ليس تفاوتا في الكرامة الإنسانية ولا في الحقوق والعدالة إنما هو تفاوت يختلف باختلاف المواهب واختلاف طبيعة العمل بين كل هؤلاء وطبيعة الحياة البشرية قائمة على أساس هذا التفاوت في مواهب الأفراد والتفاوت فيما يمكن أن يؤديه كل فرد من عمل والتفاوت في مدي الإتقان لهذا العمل.

وهذا التفاوت ضروري لتنوع الأدوار المطلوبة لخلافة الإنسان في الأرض ولو كان الناس جميعا نسخا مكررة ما أمكن أن تقوم للحياة في هذه الأرض قائمة ولتعطلت أعمال كثيرة لا تجد من يقوم بها.

فقال هاميلتون وماذا عن السخرة التي وردت بالآية؟ يا سيد هاميلتون إن دولاب الحياة وعجلتها حين تدور يسخر الناس بعضهم لبعض وهذا أمر محتم وليس معنى التسخير هنا هو الاستعلاء، استعلاء طبقة على طبقة أو استعلاء فرد على فرد.

كلا يا سيد هاميلتون مثلا العامل مسخر للمهندس ولصاحب المصنع معا. وصاحب العمل أو المصنع مسخر للعامل والمهندس والجميع مسخرون لخدمة الجميع وللمجتمع ككل. قال هاميلتون : إنها إجابة شافية تماما يا سيدي.

وقالت السيدة إيفون : اسمحوا لي أن أقدم لكم جميعا شرابا على حسابي تحية واحتفاء بهذا الرجل لكن أيها السيد العربي إنني شخصيا أطلب منك كتبا مترجمة إلى الإنجليزية حول الإسلام ولا أخفي عليك أن عرضكم العلمي المنطقي الذي لا يقبل جدلا أو تشكيكا قد زلزل قناعاتي الشخصية رغم أنني كاثوليكية المذهب.

إننا بالفعل في حاجة لمراجعة شاملة لقناعاتنا التاريخية والدينية وإنني أعترف أننا بتجاهلنا للآخرين حضاريا ودينيا وتاريخيا نبقي مقصرين تجاه الإنسانية كلها وتجاه أنفسنا وإن عرضك وطروحاتك رغم تحفظي نفسيا على بعض ما فيها تبقى لتمثل علامة استفهام خطيرة حول حضارتنا وثقافتنا وتراثنا الروحي.

وكانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة بدقائق قليلة حين قال السيد أوزنجا وزوجته وهما يستعدان للتوجه إلى غرفتهما: - اسمح لي أيها السيد أن أشكرك أولا على هذا الوقت الممتع الذي قضيناه معك هذه الليلة وسوف أراك في الغد لأمور أعتقد بأنها في غاية الأهمية بالنسبة لي شخصيا.

ثم توجه مع زوجته إلى غرفتهما. أما السيد هاميلتون وزوجته إيفون والسيدة ميري وزوجها ويليامز فقد ودعوني جميعا بعد أن تبادلنا العناوين استعدادًا للمراسلة وقال هاميلتون وهو يهمس في أذني: هل لديك مانع في إلقاء محاضرة في جامعة لندن؟ فسألته قائلا : محاضرة حول ماذا؟ فابتسم وقال : حول الإسلام والحضارة . فقلت له : على الرحب والسعة.

جلست على مقعدي مواجها لبيتر في البار وهو يرتب أشياءه ويدون بعض المعلومات الخاصة بعمله وكنت أشعر براحة هائلة وجوع شديد.